زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: أعيدوني
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
تدقيق لغوي ومراجعة: بهاء الدين الحموي

الطبعة الأولى 2017 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع: 7361 /2017
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

أعيدوني

زهير أبو سعد

إهداء

إلى تِلكَ القبُور

التِي سَرِقَت أجْمَل أحلامنَا

إلى أبِي و أمّي وَ خَليلِي وَ دمَشْق وَ فِيينَا

8 / أكتُوبر / 2030 للمِيلاد ..

لا زَال النَبض يخفِقُ بِشدّة في أحَدِ المُستَشفَياتِ في العَاصِمَة فِيينَا ، رَجُلٌ قَطَعَ منَ الفَنِ خَمسِينَ عَامًا سَيرًا على الرِيشَة ..

رَجُلٌ شَقَ العَواصِمَ بِلوحاتِهِ ، و بَينَ كُلِ مَحفَلٍ و مَحفلٍ ، كُانَ يَقولُ لَي ، هُل طَلَعَ صَباحُ دِمشَقَ !! ..

رَجلٌ أُمهُ بَردى و والدهُ قَاسِيون ، قُل لِي كَيفَ بِرأيكَ سَيرمِي بِذاكِرة تَتَنفسُ شَرقِية بحتة ! ..

شَرقي هُوَ بِكَافَةِ أزقَتِهِ ، و لَكنَ منَفاهُ بدّلَ ثَيابهُ و ألبسَهُ البَياض تَأهُبًا للموتِ ، و كُلُنَا يَكذب في حَضَرة المَوتِ ، نَلبسُ البَياض لِنخَدعَ قُدومهُ ، فَيباغِتُنَا بِسَحبِ أرواحِ من أَحببنَاهُم ..

رَجُلٌ وُلدَ مِن رَحمِ الأزقة ، و شَراييِنِ الأسواقِ العَطِرة ، نَسِي اسمهُ ، و فَقد عَقلهُ و لم تَخنهُ دِمشَق ..

و هَل تَخُون الأُمهَاتُ أولادهَا !! ..

لا أستَطِيع أن أُجِيبكَ ، لأنَ الأُمهَات لَيس لهُن ذَاتَ المَلامِحِ ، و كَيفَ لو كَانت مَلامِح دِمشق مُعفَرة بِالحَنَانِ و الأمَانِ!!..

هَذا اليَوم العَاشِر ، و عَشر سَاعَاتٍ ، و عَشر دَقائِقَ بِتوقيتِ أبوابِ دِمشقَ و عَدَدِ قَناطِرهَا ، كُل القَواسِم المُشتَركة تُلازِمهُ ، لأنهُ مُصَابٌ بِأزمَةِ الحَنَانِ في غَياهِب المنَافِي ، و لأنَكَ لا زِلتَ صَغيرًا على سَمَاعِ مِثل هَذَا الجُنُون عَليكَ أن تُهون على نَفسِكَ إذا سَمعتَ بِأحدِ المَجَانِين فَقد عَقلهُ لأنهُ مُصَابٌ بِفَيروسِ الحَنِين لِرَحمِ دِمشقَ ..

قَبلَ أن يُغمِضَ عَينهُ بِعَشر دَقائِق ، و بَعد لَيلةٍ حَافِلة منَ العشقِ ، و الغُرفةَ رَقم عَشرة في العِنَاية المُركَزِة مَشغولة طَوالِ اللَيلِ بِسَبَبِ حَالتِهِ الصِحّية التِي تَزدادُ سُوءًا يومًا بَعد يَوم ..

طَلبَ منِي أن أبكِي مَعهُ ، و لَكن لَيسَ بِلُغَةِ التَصَرِيح و لا بِلهجَةِ التَلمِيح ، و لَكِن بِقوةِ المَجاز ، بِصُعوبة بَلِيغة قَال :

ـ هَل طَلَعَ صَباحُ دِمشَقَ !؟

وَقفتُ فَوقَ رَأسهِ ، أُمَرِّرُ يَدِي على شَعرِ رَأسهِ الأبيض ، طَالبًا منهُ عَدم التَفكَير بِأي شَيءٍ :

ـ السَاعَة الآن السَابِعَة و النِصف بِتوقِيت دمشَق ، و الثامِنة و النَصف بِتَوقِيت العَاصِمة النمسَاوِية فِيينَا ..

ابتَسم كَالذِي أرَاد أن يُزِيح عَنهُ سِتارَ الألم قَائِلاً :

ـ أُرِيد أن أستَمِعَ إلى فَيروز ، ضَع لِي الأُغنِية رَقم عَشَرة من القَائِمة التي في حَاسُوبي المَحمول ..

لم أُخالفهُ ، و لم أَرُدّ طَلبهُ ، فَكَان يُراقِبنِي بَعِينِيهِ ، و يَتَجسّس عَليَّ بِبَصَرهِ المُتعَب ، كالذِي يَخَافُ أن يُكشفَ سِرهُ .. قَال مُتذمِرًا :

ـ هَل وَجدتَ القَائِمة في حَاسُوبي ! ، إنهَا عَلى سَطحِ المَكتب بِعنوان : فَيروز دِمشقِيات ..

هَزَزتُ بِرأسي ..

ـ نَعم وَجدتُهَا ..

الغُرفة التي طَوى بِهَا جَسَدهُ بِرعَايةِ بَياضِ السَلامِ ، مَكسوة بِالنصاعِ ، و مُعَفرة بِالطُهرِ ، المَسَافَة التي يُقاسُ بِهَا الحَنِين مَا يُقارِب وَاحد مِيلي نِسبِيًا على حَسبِ نَظَرِية أينشتاين ، و دَرَجةِ السُكونِ مَا لا نَعرِفَهُ من سُكونٍ يَدور خَلفَ هَذهِ المَجرَّة ..

تَشعُر بِأنَكَ على سَطحِ كَوكَبٍ آخَر ، و لَكن أخفُّ هُدوءًا على جَميع الحَواس ، و خُصوصًا الحَواسِ الثَلاثَة من الشَمِ و النَظَرِ و السَمع ..

كُلَ شَيءٍ لَطِيف ، نَقِي ، خَاليًا منَ الألوان ، فَارِغًا منَ النِفاق ، مَسحوبًا منِهُ دَسَمَ الحَياة ، و إن أمعنتَ النَظَر سَتعَلم بِأنكَ تَعيشُ حَياة أُخرى ..

إنَهَا الغُرفة رَقم عَشَرة في العِنَاية المُركَزة في مُستَشفى فِيينَا الكَبير في العَاصِمة النمسَاوِية ، و لَيسَ من بَابِ المُصَادَفة إنَ الغُرفة في الطَابِقِ العَاشِر ...

لا .. لا .. لَيسَ صدْفة .. بَل إنهَا نَهفة القَدرِ ..

لم يَكُن إحتِباسًا للسُكون ، بِقدرِ أنهَا لَحظَات فِيهَا من إحتِباسِ النَقاءِ مَا يَجعَلُكَ تَخلع ذَاتَكَ و تَحبو في ذَاكِرةِ دِمشقَ عَارِيًا من كُلِ لَونٍ .. و من كُلِ رِيشَة ، و من كُلِ لَوحة ..

فَمهمَا رَسَمتَ من أحجَارٍ دِمشَقِية ، فَلن تَصِلَ إلى نُقَطةِ الحَقِيقَة المَبتُورة من قُلوبِ العَاشِقِينَ لِدمشق ..

هَا هُوَ اليَوم مُصَابٌ بِكُلِ عِلَلِ الحَنِين ، من بَعد أن نَضُجَ بِهِ الحَنِين ، في مَسَاحَاتِ لَوحَاتِهِ النَقِية التي كَسَاهَا بِصورةِ حَنِين رَاح يَنزِفُ لَونًا بَعدَ لون .. حَتى أرداهُ الحَنِينَ طَرِيحًا خَارِجَ الوَطن ..

عِشرونَ عَامًا و هُوَ في مَنفاهُ يَتلظَى يُتمًا ، يَتمنَى أنَ يَعودَ طِفلاً إلى أُوّلِ أيامِ دِرَاسَتهِ في المَرحَلة الإبتِدَائِية ، لِيمُسِكَ بِيدَيهِ النَاعِمتَينِ طُبشُورَ الذَاكِرة ، و يُعِيدَ رَسمَ أَولَ حُبٍ لهُ ، أُولَ زَهرةٍ لَهُ ، أُولَ ضَوءٍ عَرفَت مُعلمتهُ أنهُ مَوهُوب ..

أينَ سَبورة المَاضِي ، و طَبشور الذِكرِيَاتِ ، و ضَجِيج الفُرصِ بَينَ كُلِ دَرسٍ و دَرس ! .. أينَ هُم ..

لا تَقلق سَيدِي إنهُم نَائِمونَ في الذَاكِرة ، و الكُلُ يَنتَظِرُ عَودَتكَ ..

و أنَا بِهذهِ الحَالة !! ..

نَعم .. و مَا بِهَا حالتُكَ ؟ ..

إنكَ نَضَجتَ في قِدرِ الحَنِينَ ..

عِشتَ عَاشِقا ، و رَسَامًا مُحبًا ، و تُدفنُ مُغرمًا ، و تُبعثُ إن شاءَ الله مع زُمرةِ الدِمشقِيينَ إلى جِنَانِ الحَنِين ..

و هل في الجَنَة مَنزِلٌ يُسمَّى حَنِين !؟

نَعم . هُوَ مَكَانٌ لِأهلِ دِمشقَ فَقط .. مَكَانٌ يُدعَى دِمشق ! ..

أُرِيدُ الذهَابَ إليهِ ، خُذنِي إليهِ أرجُوك ، أرِح تَعبَ رِيشَتي ، أطفئ نَارَ ألوانِي ، أوقِف أعَاصِيرَ أشواقِي ، لم أعُد أتَحمّل هَذا الوَجع الذِي أردَانِي صَرِيعًا بسِياطِ الحَنِين ..

ـ حَسَنًا أستَاذ طُونِي ، لَقد وَجدتُ المُجلّد على سَطحِ المَكتَب ..

و لَكَأنَنَي أبحثُ لهُ عن دواءٍ مُخدِرٍ يُشعِرهُ بِالرَاحة ، شَهقَ و في شَهيقِهِ سَحبة من التَعب :

ـ أرجوك ضَع لِي الأُغنِية العَاشِرة ، قَبلَ أن يَرحَل صَباح دِمشَق ..

وضَغتُ سَهم الماوس على المَلف العاشِر و ارتَفع صَوتُ كلّ شَيءٍ يُشبهُ دِمشَق :

رُدّنِي إلى بِلادِي ..

رُدّنِي إلى بِلادِي مع نَسائِمِ الغَوادِي ..

مَع شُعَاعَةٍ تَغاوت عندَ شَاطِئٍ و وَادِي ..

رَعشة الفُؤاد تَفتُر شَيئًا فَشَيئًا ..

أنَا لَستُ بِمجنُونِ لَيلَى ، لأنَّ لَيلى خَانتْ حَبِيبهَا ، و وَحدهَا الأمكِنَة لا تَخون ، إذا من أنَا !؟ ..

أنَا مَجنُون دِمشق ..

هل صَوتُ فَيروز مُسكِنَا لِجَراحِ الدِمشقِيين !؟ ..

لا أعْلم مَا المُضَاد الحَيوي الذِي يُؤثِر بعَبِيد دِمشق عندمَا يَستَمعُونَ إلى صَوتهَا ! ..

ـ أُرِيد فُنجَانا من القَهوة .. لَيسَت أيّة قَهْوة .. أُرِيدُهَا قَهوة دِمشقِية بَحتة .. مَطحُونة في أحدِ مَحَالِ سوقِ البزُورِية .. مَغلِية على البَتُوغاز الذي تَطهو بِه أُمّي جَميع ذِكرِياتها .. في صِراعٍ مع الحُلول ..

في إصطِدامٍ مَعَ الحَاضِر الذِي لم تَقتَنع بِه ذَاتِي ، أُحَاولُ أن أُلهِي ذَاتِي بالتَحضُرِ و التَمدُن ، و لَكن لَيس كُل المُدن لَهَا مَاضٍ كَمَاضي دِمشق ..

في 8 / أكتُوبر / من عَامِ 2013 للمِيلاد ..

و بَعد اندِلاعِ الثَورة السُورِية على أحدِ مُجرمِي بِلادِ الشَامِ ، أذكُرُ كَيف إختَفت مَلامِح دِمشق و أنا أحملُ حَقائِبَ الذَاكِرة في يَدِي ..

قُلتُ لَهَا كَثيرًا تِلكَ المِسكِينة التي أنَجبتني :

ـ يا أُمّي لا أُرِيد الرحَيل خَارج البِلاد ..

فَكانَ البُكَاءُ دَيدَنهَا ، و تُصرُّ عَليَّ قَائِلةً :

ـ يَا أُمِي حِزب البَعث يَعمل على تَجنِيد الشباب ، و أنَا لَيسَ لَي غَيركَ و غَير أُختكَ ، إرحَمنِي يا ابنِي ، إذا حَدثَ لكَ مَكروه فَلن أُسَامِح نَفسِي ..

لم أقتَنع بِحَدِيثِهَا البتة .. و لَكن أشفقتُ على دُموعِها ، لأنهَا نَمَتْ مَع نُموِ أظَافِرنَا منذُ أن فَقدتُ أبي و نَحنُ لم نَبلُغ رُؤياهُ ..

شَدَت أمتِعَتي ، و هِي تَمسَح دُموعَ الفِراقِ بكُميهَا ، حَقَيبة بِعُمرِ المَهَجر ، و بِرائِحَةِ المنَافِي ، و بظُلمَةِ الشَوق ، ثَلاثُ كَنزَاتٍ من الصُوفِ ، نَسَجَتهَا في كَاتِدرائِيةِ النِياح المجَاورِة لِمنَزِلنَا الدِمشقِي ، أذكُرُ أنهَا تَطوّعَت في الكَنِيسَة

لِتَكونَ خَادِمَة للهِ ، و في كُلِ مَساءٍ و بَعدَ الإنتهَاءِ من التَنظِيف و تَبخَيرِ الكَنِيسَة تُشعل لِي شَمعة ، و تَجلس في المَقاعِد الخَلفِية ، و تُخرج حَقِيبة الصوف لِتَبدأ تَنسِج لَنَا قَرابِينَ الحِمَاية ..

هَل تَعلم بِأنَنِي لا زِلتُ أحتَفِظ بِهَا ! ، و إن لم تُصَدِق فَهِيَ مَعي في المَشفَى ، إفتَح الخِزَانة سَتجدهَا في الحَقِيبة ، بل في الرَفّ الأخَير ..

و ثَلاثة بنَاطِيل ، و قُفاز ، و مَندِيل حَرِير ، و مِعطف مُبطَن بِالفَرو ، و قَارُورة صَغيرَة من عِطرِ اليَاسَمين ..

إنهَا كُل مَا أملك ..

لقَد حَزمت في حَقِيبَة الوَدَاع كُل مَا تَشتَهِيهِ دِمشق ، و كُل مَا يُثِير فُضُولكَ ، حَقِيبة مُرتَبة على حَسَبِ التَسلسُلِ الزَمنِي للرَحِيل ، كُل شَيء فِيهَا مَصفوفٌ بِعِنَاية فائِقة ، و من تِلكَ اللحَظَة و أنَا أُرمِمُ مَا كُسِرَ في قَلبِي تِلكَ الكَلمة التي لم أعُدْ أُصدِّق ذَاتِي من أثَرِهَا :

لن أَغِيبَ طَوِيلاً .. سَأعُود ..

يا عَذراء نَجِينَا .. كَم أنَا كَاذِب و مُنَافِق ..

سَأعُود ..

يَقولونَ لَكَ إن هَذهِ السِين سَببٌ للمُمَاطَلة ، و يَقول آخَرون بِأنهَا سِين الحَدِ بَين الوَعدِ و الفِعل ، و يَقول بَعض القَوم إنهَا بِدَاية للكَذبِ ..

سَأعُود ..

و حَتى أبقَى على قَيدِ العَهدِ ، أو بِبَلِيغِ العِبارة على قَيدِ سِين العَودة ، أمضَيتُ سِنينًا في المنَافِي و في مِلحِ العَواصِمِ الباذِخَة في الفَن أرسُمُ حُلمًا بِعنوان :

سَأعود إلى دِمشق ..

حَاولتُ و أنَا في سيّارةِ الوَداع أن ألتَفِتَ إلى دِمشق ، و لَكن دُموعِي لم تَسمح لِي ، و لَكأنهَا كَانت تَقول لَي :

إنّي لا أُحبُ الهَارِبين ..

صَدقت دِمشق و لو كُنَا على حَق ، فَدمشق لا تَكذب حَتى لو كُنتَ قِدِيسًا مَعصوم ، فَعصَمة دِمشق تُضَاهِي كُل أفِئدةِ الصِدِيقين ..

لن تَكونَ رَجُلاً مَا دُمتَ تَتَلوى خَارِجَ حَرمهَا ، لَن تَستَطِيع أن تَقولَ لَهَا :

سَامِحِينَا ..

لأنَك تَعلم أنَك كَاذِب ..

و دِمشق لا تُحبّ الكَاذِبين ..

و لا تُجرِب لُغةِ العُذرِ و التأسُفِ ، فَتَخَيل مَعي لو أنَ هُناكَ لَوح زُجَاج و قُمتَ بِشَعرهِ و إظهَارِ عيوبِهِ قَصدًا ، و وَضَعت عَليهِ لاصِقًا للجِراح ، هُل يَا تُرى سَيُمحَى أَثر عُيوبِ لَوحِ الزُجَاجِ !؟

فَدِمشق لَوحٌ من كريستَالِ ، و عُذرُكَ كَلاصِقِ الجِراح ..

فَلا يُوجد لاصِقًا في هَذا الكَون يُرمِمُ جِراحَ دِمشق ..

احتَفِظ بِعذرِك ، و أسَفكَ مَردُود يا فَتى ..

و من تِلكَ اللحَظة أُقدِمُ قَرابِين العِشقِ يَومًا بَعد يَوم ، أرسُمُ دِمشق بِكُلِ تَفاصِيلِ الشَوقِ ..

معَرض بَعدَ مَعرض ..

و جَائِزة تِلو الجَائِزة ..

و مُؤتمراتٍ و مُنتَدياتٍ و مُلتقَياتٍ تَصُبُّ في قَالبِ الفَنِ الشَرقِي و الإعلامِ الغَربِي ..

و لا زِلتُ عَبدًا يَعبُدُ دِمشقَ بِكُلِ تَفاصِيل الهَوى ..

يَقولونَ لَكَ يُحشَر المَرء مع من أحبّ !! ..

و هَل يُحشَر المَرءُ مع المُدن !؟ ، يَا لَيتنِي كُنتُ حِجَارة في أحدِ أزقَتهَا ، يا لَيتنِي كُنتُ قَنطَرة تَحتَ سَقفِ سمائِهَا ..

كُل شَيء في هَذهِ العَاصِمة رَسمتهُ ..

مُبتدِئًا بِأُمّي .. و مُنتَهيًا بِأُمّي ..

جَمِيلة هيَ أُمّي بِلونِ عَينيهَا العسَلِيتين ..

جَمِيلة تِلكَ الأُنثَى التي اتَّخَذت الأسْودَ حِدَادًا في عَاصِمة يَلبسُ الياسَمين بَياضَهُ بَذخًا ، جَمِيلة قِديسَة الزَيتونِ يا ابنةِ النُورِ ، جَمِيلة خَادمة الكَنِيسَة في أُبهَةِ السَكِينة ، جَمِيلة أُمّي بِصمتهَا و وَقارِهَا و بَسَاطَتهَا و أُميتِهَا ..

جَمِيلة رَيحَانَة الأزقة البَازِلتِية ، بِشَالِهَا المَعقودِ خَلفَ جَدائِلهَا ، جَمِيلة النقِية الوَفِية التي أشَبعتنَا حُبًا ، و سَقتنا عِشقًا ، و جَعلت من دِمشق لَنَا قِبلةً ..

قِبلةَ الصَباحِ هيَ ، و مَذبح المَسِيحِ هِيَ ، و بَهجة العَذَراءِ هِيَ ، و بَسمةِ السَائِرينَ على مِلحِ كُلِ قِدِيس ..

أُنثَى تَغسِلُ وَجهَهَا بِندى الإيمَانِ ، و تَتَدثَرُ بِوِشَاحِ الرَهبة ، تُشعِرُكَ بِأنهَا في تَأهُبٍ دَائِمٍ للقاءِ الله ..

أُحبّهَا .. كَمَا هِيَ و أرهَقنِي رَحِيلهَا المُبكَر ، و مَا أجملهُ من رَحيل ، و مَا أنقاهُ من وَدَاع ، و مَا أبهَاهُ من نُور ، فَلقد وَصلت لِي رِسَالة مَفَادُهَا

عُمتِ مَسَاءًا يا أُمّي ..

لَقد كُنتُ دائِمًا على تَأهُبٍ دَائِمٍ مَعَ المَوت ، و كُنتُ على يَقِين بأنَ المَوت سَيأتِينِي مَسَاءًا ، و هَا هُوَ قَد جَاء ..

إن وَصلتكَ هَذهِ الرِسَالة إلى يَديكَ ، فَاعلم بِأنهَا من دِمشق و لَيس من أُمّكَ ، لأنَ من كَان يَعشق أُمهُ فإنَ الأُمهَات إلى زَوال ، و أما من كان يَعشَق دِمشْق فَهِي المَعشُوقة التي لا تفْنى وَلا تَزول....

أُشفِقُ عَليك يا أُمّي في هَذهِ اللحظَة ..

و لَكن شَوقِي لأُمِ النُورِ لا يُضَاهِيهِ شَوق ، و فِراقي لِدمشق و لَكُم لا يُعَزِيهِ فِراق.

إن نَسِيتنَي يَومًا فَهوَ في تَعالِيمِ القُلوبِ مُباح لأنَ الإنَسَان مَجبول على النِسيان ، و إن تَنَاسَيتَ دِمشق فَهو في عَقائِد أهلِ الحُبِ حَرام حَرام حَرام .

لَكَ منِي كُل المَحَبة ، و لَكَ منَ الرَبّ الصَبر و السلوَان ..

طُوبى لِمن اختَارهُ الرَب ..

أُمُكَ

جُولِيا حَدّاد

أُم جُونِي

سُورِيا . دِمشق . باب شَرقِي .

فَمنذُ أن أَتَتْنِي هَذهِ الرِسَالة و أنَا أعِيش الحُزن تِلو الحُزن ، حُروبٌ قَائِمة حَول دِمشق تَجعَلُكَ تَتَربَّص بِكُلِ عَابِرِ طَرِيق ، و الخَوف و الجُوع في كُل مَكَان ..

أتُراهَا أُمِّي مَاتت جُوعًا و خَوفًا !..

لا أعتَقِد ..

لأنَ من شَاهدَها في كَنِيسَةِ الزَيتونِ و روحهَا خَارج هَذا الكَون ، حَسِبَهَا نَائِمة ..

و هَل أهْل العَشقِ ينَامون !؟ ..

هُم أحَياءٌ عِندَ الرَب و لَكِن لا تَشعرُون ..

يَقولونَ لكَ بِأنَ المَوت هُوَ خُروج الرّوح من الجَسَد ، و يَقولونَ أيضًا هُوَ تنَاسُخ للأرَوَاح ..

و لَكِن المَوت من وجهَةِ شَوقِي هُوَ شَوق لا غَير ..

كُل مَن خَرجَ من دِمشق يَعرِف جيدًا مَا مَعنى المَوت ، حَتى وَصَل بِنَا الحَال للاسْتِغناء عن تَحَالِيل و دِراسَاتِ عُلمَاءِ اللاهُوتِ و الأرواحِ ..

نَاموا جَيدًا .. فَلا يُوجد مَوت كَشوقِ المُشتَاقِ لِدمشق ..

عَقدًا و نَيف و أنَا في المَهجرِ ، عَقدًا و نَيف و أنَا خَلفَ أقفاصِ العَواصِمِ ، من زِنزانةٍ لِزنزانة ، مُطَارٌ بِرائِحةِ دِمشق ..

مِئة و أربَعة و عَشرِون مَعرِضًا فَنِيًا ..

كُل لَون ، كُل رِيشَة ، كُل لَوحة .. لَها من دِمشق نَصِيبًا مَفروضًا ، عَقدًا و نَيف و أنَا أُرْكل مِن عَاصِمة إلى عَاصِمة أُخرى بُغية المُشَاركة بِلوحَاتِي ..

لَونٌ وَاحِدٌ يَعرِفُنِي ، حَتى الصَحَافة و وسَائِل الإعلامِ سَئِمت منِي و مِن لَونِي ، و من مَسَارِ رِيشَتِي التي تَأبى أن تُغَير وِجهَتهَا نَحو دِمشق ..

حَصَدتُ من الجَوائِز و الأوسِمة و النَياشِين ما لا يُحصَى ، و كُل مَا كُنتُ أحصُل على شَيءٍ من تِلكَ الترهَاتِ ، كَان شَيء مِن حَولِي يَقول :

هَذهِ ضَرِيبة الشَوقِ ، و مَا أبعدنَاكَ إلا لِنَرفَعكَ ..

لَستُ يَعقُوبِي الهَوى لأصبُر على يُوسُفِي دِمشق ، و لا أستَطِيع أن أتحَمّل هَذا الكَم من الفِراق ..

وَحدهَا ألكسَندرة مَن كَانت تَفهَمُ مزاجِي ..

مُضِيفَة طَيرانِ رُوسِية تَعمَل في الخَطوطِ الجَوِية السوِيسرِية ، جَمعتنَا الصّدفَة ذَاتَ رِحلة من العَاصِمة فِيينَا إلى العَاصِمة السِويسرية بِيرن ..

كَانت لهَجتهَا الألمَانية تَلمع كَبَرِيقِ أسنَانِهَا ..

كَانت شَهِية بِبَذتهَا الحَمراء ، كَقِشرةِ الكَرز ، كُل مَا فِيهَا من بَياض كَان فَاضِحًا و مُبتَهِجًا ، أوّل صَفعة لِقلبِي بأولِ غَمزةٍ حِينَ صُعودِي إلى الطَائِرة ، و بَينَ كَرٍ و فَرٍ في أثنَاءِ الرِحَلة حَصلتُ على رَقمِهَا السَرِي ، بَل إلى مِفتاحِ قَلبي المَحمُومِ بِحبٍ أول كمَا يُسمُونهُ أهْل الهَوى ..

وَصلت الطَائِرة بِشِباكِي و ضَحِيتِي و جِنايتِي إلى حَيثُ حَلقت ، و أولى رسَائل الهوى كانَت غَمزةً منِي ، فَابتَسَمَ الكَرزُ مِغنَاجًا ، و وَقعَت في وِعَاءِ قَلبِي كَمُربَى صَيفِي .. مَا أشَهَاهَا من مُربَى ..

وَرقَة سِرية فِيهَا أرقامٌ فِيينَاوِية ، و رُموزٌ خَاوِية من الصَدى ، لَهَا بِدايات الدِفئِ ، و صَولةِ الحَمِيم ، كُلُ مَا نَظرتُ إليهَا وَقعتُ سَكرًا ..

أرَقَامٌ من تَتَبعَ خَمرتهَا وَصلَ إلى حَافَةِ اللامُبالاة مُتَهاذِي العِشقِ على أكتَافِ الأرَقامِ ، سِيروا بِي إليهَا يا كُلَ رُموزَ الرّياضِياتِ ..

هيَ الهَاتِفُ ، و خُطوط الإتِّصَالاتِ ، و مُوظَفُ الخِدمة ، و ذَبذَبات المُكالماتِ ، و الأحَادِيث التي قُلنَاها ، و الأحَادِيث التي لم نَقُلها ، و الأحَادِيث التي خَبّأتهَا قُلوبنَا ، و الأحَادِيث التي لم تَنضُج بَعد ، و الأحادِيث التي كَذَبت عَلينَا و الأحَادِيث الصَادِقة ، و مِقود الهَاتِفِ بِأشكَالِهِ ، و أرقام جَارتنَا اليَهودِية ، و أرقَامُ طَبِيبي العَامِ ، و أرقام

الأُستاذ إستِفِين ، و بَواباتِ الدُخولِ إلى الفَنَادِقِ ، و نَادِلَةِ المَقهَى في حَيّي الخَامِس ، و مَحطَةِ المترو ، و سِكَكِ الحَدِيدِ ، وأنا.

في طَرِيقِي إلى العَودة ، صَدمَة ، فَغمزَة ، فَرقَمٌ سِرّي ، فَتعَثُرٌ بِالنَومِ ..

لَيسَ غُرورًا أقولُهَا ، و لَيسَ اعتِرافًا بمَا جَرى ..

لم تَعجبنِي أُنثَى سِوى دِمشْق ..

شَابٌ فَارغٌ من كُلِ شَيءٍ ، لا هَمَّ لَهُ سِوى العَودة إلى وَطنِه ، مُتَأهِبٌ لإمتِطَاءِ أية سَحابَة شَوق لِتُنقلهُ إلى العَاصِمة دِمشق ، لم يَرَ من هَذهِ الدُنِيا سِوى وجْه أُمّهِ ، و كَنِيسَةَ الزَيتونِ التي كَان يَحملُ فيها شَمعدان الرَبِ في كُلِ قُداسِ ..

شَابٌ وَجدَ البَياضَ خَيرَ مُنصِفٍ لَهُ ، فَراحَ يَشكو هَمّهُ لِكُلِ لَوحة ، و رَاحَ البَياضُ يَتغَير عَلى حَسَبِ الشَوقِ ، و بَينَ كُلِ شَوقٍ و شَوق .. كَانَ يَظهرُ على البَياض العَاصِمة دِمشق ..

مَاذا فَعلتْ بِه هَذهِ العَاصِمة !! ..

يتصَفحُ العَناوِين السَاخِنة على المَواقِعِ الإلكترُونِية في كُلِ صَباحٍ ، لِيطمَئنَ على عَاصِمَةِ اليَاسَمِين !! ..

شَابٌ يَتحدّثُ إليهَا بَين كُلِ وَجعٍ .. و وَجعٍ ..

كَيف حالك !؟ ..

فتُجيب: أنَا مثلُكَ ، أحنُّ ، و أئنُ ، و أتوجّعُ ، و أشتَاقُ ، و أكبُرُ في قُلوبِ العَاشِقِين ، أينَ أنتَ الآن يا أنْطوان !؟ ..

أنَا هُنَا ..

منذُ أن سَقطتُ من رَحمكِ يَتِيمًا ..

قُطِعَ وِصَال حَبلِي السَرِي منذُ أن هَربتُ من جَوفِكِ حَافِيًا ،

هَل كُل المُدن لَهَا أرقَامُهَا السِرية !؟ ..

نَعَم .. و كَذا الإنَاثُ الجَمِيلات الكَرزِيات ..

ضَحكتُ حَتى بَدأ الدَمعُ يَشقّ طَرِيقَهُ إلى دِمشق ..

يا دِمشق إنهَا ألكسَندرة ..

و لَكِنها لَيسَت أشهَى من المَشي يُتمًا على أزقَتكِ ..

لم أتَحدّث مع أُنثَى قَط في كُلِ حَياتِي ..

مَاذَا تُرانِي قائِلاً لهَا !؟! ..

دَع قَلبَكَ يَقول فِإنَ القُلوبَ مَأمورَة ..

بِحَقِ السَمَاء يَكفِي استِهتَارًا بِالقُلوب ..

طَلبتُهَا فَورَ عَودَتي إلى فِيينَا ..

ألوو .. ألو ..

تِررررررم .. تَرررررم .. تَرررررم ..

تُووووت .. تُووووت .. تُووووووت ..

عَزِيزِي المُتَصل ، سأتحدّثُ مَعكَ لاحِقًا ، فَور عَودَتِي إلى النِمسَا ..

حَسنًا .. الربُ أعْلم هِي في أي سَماءٍ ! ، إنهَا بِحَاجة إلى مَجرّة أكْبر مِن مَجرّة دَربِ التَبانة لتَحمِي هَذَا الجَمَال ، يا لِإخضِرارِ عَينيهَا مَا أنقاهُ ..

كَجنّة عَالية على جَبلٍ شَاهِقٍ بِالحُبِ ، يَحمِيهِ نَصاع الغَيوم من كُلِ حَدبٍ و صَوب ..

في صَباحِ اليَومِ التَالِي عَاودتُ الإتِصَال ..

و جَاء صَوتُهَا كَسَحابة تَحملُ في جَوفِهَا النَدى لأرضٍ مُتَعطِشَة للمَطَر ، و كُلَما قَالتْ : ألو .. مَرحَبًا ..

و كلمَا قَال قَلبِي : أمطِري يا آنِسَة البَياضِ بَصوتِكِ ، أمطِري أحرُفًا ، و شَوقًا ، و نَدىً ، أمطِري بِكُلِ اللغُاتِ ، و بِكُلِ الأحرُفِ ، و بِكُلِ الكَلِمَاتِ ، و بِكُلِ اللهجَاتِ .. نَعَم ، قُولِي مَزِيدًا من ال أللووو ..

و بَينَ شَوقٍ و ذَوبانٍ في صَوتِهَا ..

قُلتُ : مَرحَبًا .. هَل عَرفتنِي !؟ ..

صَمتَ الكَرزُ الجَبلِي بِسَكِينَةِ الغُيومِ !! ..

ـ نَعم عَرفتُكَ ، أليسَ أنتَ الشَابُ الوَسِيم !..

الكلِمة ذَاتُهَا التي كَانت تَقولهَا لِي أُمّي ، الفَتى الوَسِيم ، إستَنتَجتُ أنّ من يَصِفك بِالوَسِيم ، كَأنه يَقول لَك : أنا أُحبُكَ.. .. أي أنّـك لم تَصِل في عَينَيهِ لِدَرجَةِ الوَسَامة إلا لأنَك أعجبتِه ..

و كُل شَخصٍ على حَسَبِ إعجَابه بكَ ..

فَإعجَاب الشَوقِ و الشَغفِ ، لَيسَ كَإعجَابِ العِشقِ و الغَرامِ..

ـ كَيفَ عَرفتِنِي و أنَا لم أتحَدّث مَعكِ قَط !! ..

فَكّرتُ مَليًا بِالأمرِ ، و استنتَجتُ ثَانِيًا :

كَم مِن شَابٍ وَسِيم حَظِي بِهَذا الرَقم !! ..

و من يَمنَعُهم من الإحتِفاظ بِرقمِهَا و مَعَاشَرِة أرقامهِ سِرًا ، و مُغَازَلةِ رُموزه خَلفَ الهَاتِفِ ، و رَمِي حُمَم من القُبلِ على مَا تَبقَى من مَساحَاتِ وَرقَتهِ !! ..

لا أحد ..

لأنَ جَمَالهَا هُوَ الآمرِ النَاهِي الذِي يَجعلُكَ تَسير خَلفَ كَمَالِهَا كَالخراف التي تَسيرُ خَلفَ رَاعِيهَا ..

ضَحكتُ أيضًا و أسَررتُهَا في نَفسِي وَاصِفًا ذَاتِي :

يا خَروف ..

أجَابَ الكَرزُ مُتوجِسًا ..

ـ إنهُ القَلب يا أيُهَا الوَسِيم .. حَسنا ، على مَا يَبدو بِأنكَ لَستَ من النِمسَا ، هَل لي أن أتَطَفَل عَليكَ و أعْرف مِن أين أنتَ !؟ ..

ـ نَعم بِكُلِ سُرور .. أنَا من دِمشق .. و أنتِ على مَا يَبدو أنَكِ لَستِ منَ النَمَسا ، أليسَ كَذلِك ! ؟ ..

صَمتَ الكَرزُ بُرهَةً منَ الصَيفِ حَتى فَكّرَ كَيفَ يَنضُج و قالتْ :

ـ أنَا من مُوسكُو ..

إجَابة بِحَدٍ وَاحِد ، إنهَا إجَابة العَواصِم ، و المُدنِ الشَاهِقة المَنحوتة بِالتَارِيخ ، و بينَ تَارِيخهَا و تَارِيخِي مَسيرةِ ذَكاءٍ و حِنكة ..

رُوسِية من فَصِيلةِ الدبَبِ البَيضَاءِ ، تُبارزُ دِمشقيًا من سُلالَةِ الياسَمِين ، على أرضِ المُوسِيقى ..

أيةُ زَلازِل مُوسِيقِية سَوفَ تَفكُ إصطِدَام سيوفنَا ..!!

ـ يَسُرنِي أنَنَي سَمعتُ صَوتكِ ، و أتمنَى أن نَلتقِي إن كَانَ لَديكِ وَقت ..! ..

صَمتَت بِمكَرٍ خَلفَ مِقبضِ هَاتِفِها ، و قَالتَ :

ـ بِكُلِ سُرور .. في عُطلةِ نِهَاية الأسبوعِ .. أين تُرِيد أن نَلتقَي !؟ ..

إنهَا حِنكَة الدَبَبِ القَطبِية .. أعطَتْ لِي مِقوَد أولِ لِقاءٍ ، و مع أنَنَي لا أعْرِف صِراع الحُبّ و لا حَربهِ أو سَلمِهِ ، رُحتُ أُفكّر و الكرز خَلف هَاتِفهِ يَضحكُ بدِهَاءِ ، قُلتُ :

في عُطلةِ نِهَايةِ الأسبوعِ أنتِ مَدعُوة إلى مَنزِلي السَاعة الرابِعة مَسَاءًا على الغَداء ، فأنَا لم أعُد أؤمِن بِالقَهوة في ضِيافةِ أولِ لِقاء ..!

قَالَ الكَرز :

ـ حَسنا ، مع أنَنَي لم أتذوّق الطَعامِ الشَرقِي ، سَوف أُجَازِفُ و أقبَل الدَعوة ، بِكُلِ سِرور عَزِيزِي ، و الآن سَوف أترُكُكَ لأنَنَي مَشغُولة .. بااااي ..

يا لِذكَائِهَا ، لَقد قَطعَت المُكَالمَة بِغَير أن تُعطِينِي فُرصة للدِفاعِ عَن طَعامنَا الشَرقِي .. هَل حَقًا أُرِيد الدِفاع عَن شَرقِيتي ، أم عَن كَرامَتِي !! .. سُحقًا ..

بِصوت عَدمِ اللامُبالِي بِهَا ..

ـ بااااي ..

و أغلقنَا أول حَربٍ ، أو لَعلهَا أول صَفعَة ..

هُنَاكَ من العَلاقاتِ ما تَحسبُهَا حَياة سَتعَيشهَا و تَعيشُ بِكَ ، و لكَنهَا بداية للهَلاكِ ، هُنَاكَ عَلاقات لا تَلتَفت لهَا إلا سَهوًا لتراهَا حُبًا ..

لا تَعرف كَيف ! ، و مَتى ! ، و أين ! ..

كُل مَا تَعرفهُ بِأنَكَ ارَتطمتَ حُبًا ..

أحِبَ يا حَبِيبي كَمَا تَشتَهِي ، و كَمَا تُرِيد ، فَإنَ العَاقِبة للإخَلاص ..

سَألتُ نَفسِي .. مَاذَا أُرِيد منِهَا و أنَا بهِذا الخَراب ، خَراب وَطن ، خَراب عَائِلة ، خَراب ذَاكِرة ، و خَراب حَنِين ..!؟ أَلِهَذا الحَدّ أنتَ بِحَاجَة لأُنثَى لِتفرغ شَهواتَكَ ، و تَتَركَهَا للأَسِرة المُلطَخة بِالنَشوة ! ، ألهَذا النَبض أنتِ بِحَاجَة إلى رَجُلٍ يُكمِلُكِ و تَترُكِيهِ يُجَفِفُ شَهوتَهُ بَين فَينة و فَينة ! .. الكُل بِحَاجة الكُل .. و لَكن لَيسَ لِحَاجة إنسَانية بِقدر أنهَا حَاجة شَهوانِية غَرِيزِية شَخصية ..

و الحُبّ إذاً !؟ ..

الحُبّ ..

كَلمَة و فِعل ..

و الكُلُ يُرِيد أن يُثبِت جَدارتَهُ في صِراعَ حَرفِ الحَاءِ و حَرفِ البَاءِ ، فَالحُبّ في حَقِيقَةِ الأمَرِ فِعلٌ و كَلمة غَير مَلمُوسَة ، إنمَا تحاول بِكُلِ قُدُراتِكَ المَادِية و غَيرِ المَادِية أن تَصِلَ إلى مَا تُرِيد ، و لَكن كَيف ! ..

لا أحَد يَبحث عنِ الحُبِّ من الحُبّ .. كَلا ..

الكُل يُرِيد الحُبّ لِيكُونَ وَسِيلة من أجلِ سَحبِ فَرِيسَتِهِ ، و إذا لاحَظت بأنَ تِلكَ الفَلسَفة التي يحْتاجهَا كُل مَخلوق..

و حَتى الحَجر في عَالمِ الإعجَازِ ، و كَوكَب الكَرامَات تُحبّ .. و تَشتَاق .. و تَهوى .. و تَحِنّ ..

فَمَا بَالكَ بِكُتَلة لَحمِية تَسَير على الأرْض مَجبولة بِالمَشَاعِر و الأحَاسِيس !! ..

الإنسَان الذِي لم يَفْقَه منَ الحُبِّ سِوى أنهُ مِصيَدة لِسَحبِ ضَحِيتِهِ إلى شَهوتِهِ و نَشوتِهِ و مَعصِيتِهِ ، الإنسَان المُتكَبرِ المُتَجَبر الذِي جَعلَ من مُتَطلبَاتِ القَلبِ مِصيدة لِمَلذّاتِهِ و

إشباعِ غَرائِزِهِ .. يَكفِيهِ عُهرًا أن يُفَكِر بِهذهِ الطَرِيقة التي تَصُبُّ في مَصلَحتِهِ ..

دَائِمًا الشقّ الثَانِي من بَني الإنسَانِ و هيَ الأُنثَى مَن تَتَأثَر بِبَرِيقِ الحُبِّ ، و هِي الضَحية الأسَاسِية لِبدَايةِ أو نَهَايةِ أَيّةِ قِصّة عِشقِية ..

لِكُلِ قَومٍ خَلطَتهُم السِرية لإستجَلابِ الحُبِّ و جَعلِهِ شِباكًا لِسَدِ رَمقِ كَسرِهِم و عَطَشِهم ، و التَارِيخ لَهُ تَجرُبة عَظِيمَة في أحَادِيثِ الحُبِّ و حَربهِ و سَلمِهِ ..

فَمنهُم الصَالحِين ، و منِهُم الطَالحِينَ ، و منهُم اللصُوص ، و منهُم الطُغاةِ ، و منِهُم القِدِيسِينَ ، و الأنبِياءِ و الأولِياءِ و من تَبِعَهُم و من سَارَ على نَهجِهم ..

قَرأتُ ذَاتَ لَيلة خَالِية منِ الحُبِّ عَن أُنثَى أحبَّت الله لأنهَا عَرفَت أنهُ هُوَ الحُبّ ، أُنثَى عَرفت أينَ ظمَأهَا و أينَ رَاوِيهَا .. فَأختَلت بهِ مُذ أن جَعلت الحُبَ للهِ سُلمًا ، و فاض بهَا العِشق حتّى جَعل منهَا شَاعِرة ، و خَلَد التَارِيخُ حُبّهَا لأنّهَا مُخلِصَة لِمحبوبِهَا ، رَاح قَلبُهَا يُنشِد :

عَرفتُ الهَوى مُذ عَرفتُ هَواك ..

و أغلقتُ قَلبِي عَمن سِواك ..

و كُنتُ أُنَاجيكَ يا من تَرى ..

خَفَايا القُلوب و لَسنَا نَراك ..

أُحبّكَ حُبِّينِ حُبّ الهَوى ..

و حُبّا لأنَكَ أَهلٍ لِذاك ..

فأمَا الذِي هُوَ حُبّ الهَوى ..

فَشُغلِي بِذكِركَ عَمن سِواك ..

و أمَا الذِي أنتَ أهلٌ لَهُ ..

فَكشفكَ للحُجبِ حَتّى أرَاك ..

و تَطوي الأيامُ أهلَ الحُبِّ ، و كُلٌ على حَسَبِ حُبّهِ ، و كُلٌ على قَدرِ إخَلاصِهِ ، أُنَاسٌ لا نَعْلم كَم بِهِم من الصَبرِ و الجَلدِ على تَحمُلِ تَبِعَاتِ الحُبِّ و تَعبِهِ ، و لَكَ في حُبِّ البَشَرِ للبَشَرِ أسوَة حَسنة ..

أحَبّ عَنتَرة بن شَدَاد عَبلة حُبًا شَدِيدًا و قَاتَلَ حَتى تَكون من نَصِيبه ، فَجعلَ الحُب منهُ شَاعِرًا ، يَطُوفُ حَولهُ العُشَاقُ ، قَال ذَات حُبٍ وَاصِفًا مَحبُوبَته :

ألا يا عَبلَ قَد زَادَ التَصابي ..

و لَجَّ اليَوم قَومُكِ في عَذَابِي ..

و ظَل هَواكِ صَروفَ دَهري فِيكِ حَتّى ..

فَني و أبِيكِ عُمري في العِتابِ ..

و لا قَيتُ العِدا و حَفِظتُ قَومًا ..

أضَاعُونِي و لم يَرعَوا جَنابِي ..

و كُلٌ يَستَغِيث بِالحُبّ لِيبُرهِن للطَرفِ الآخَرِ بِأنهُ عَاشِقٌ بِكُلِ مَا أُتيَ البُرهَانِ من تَعَبٍ ..

لَن أقولَ عن نَفسِي بأنَنَي عَاشِقٌ لأنَنَي تَخَطيتُ لُغَةِ العَشقِ مُذ خَرجتُ من دِمشق ، يا سَيّدِي أنَا مَجنُون كَمَا ذَكَرتْ إحَدى الصُحُفِ الفَرنِسيةِ ذَاتَ خَبَرٍ مَحمُومٍ بِالجُنونِ بِعِنوانِ:

رَسّامٌ دِمشقي ، خَرجَ من دِمشق منذُ عَشرِ سَنواتٍ ، و رِيشَتهُ لم تَخرجْ من عِشقِهَا لِدمشق ..

رَجُل أتَعبهُ الحَنِين ، و أرهَقَهُ الحُبّ ، و أذَابَ لُبهُ الشَوق ، كَيفَ تُراهُ يَخرُج من عَاصِمة حِجَارتُهَا هُوَ ، و أسواقُهَا هُوَ ، و قَنَاطِرُهَا هُوَ ، و تَارِيخُهَا هُوَ ، و يَاسَمِينُهَا هُوَ .. كُلَّ لَيلة يَبكِي مَرسَمهُ عَلى حَالِهِ ، و كُل اللوَحَات تُخَاطِبهُ ، كُل الالوانِ تُربّتُ على قَلبِهِ ، كُلِ الرِيشِ تُجَفِّفَ الدمعِ من آمَاقِ يُتمهِ :

أرفِق على نَفسِكَ يا أَستَاذ ، يَكفِيكَ رَسمًا للعَاصِمة العتَيقة ، إنَ البَياض قَد ضاقَ بهِ المللِ ، و من يَتَتَبعُ لَوحَاتَكَ لم يَعُد يتلهفه رُؤيةِ جديدك ، لأن جَدَيدكَ مَدِينَتكَ عَاصِمَتكَ مَحبوبَتكَ :

دِمشق ..

لا تَلوموني يَا قَوم ، و لا تَلوموا شَاعِرهَا المَجنونِ نِزارِ قَبانِي ، و لا تَلوموا ألوانَنَا و لا كَلمَاتنَا و لا شَهواتنَا و لا نَشواتنَا و لا أي جُنونٍ بِنَا ، فَلقد قَالَ شَاعِرُهَا :

هَذي دِمشق .. و هَذي الكَأسُ و الرَاحُ ..
إنِي أُحبُّ .. و بَعض الحُبِّ ذَباحُ ..
أنَا الدِمشقِي .. لَو شَرحتمُ جَسَدِي ..
لسَالِ منهُ عنَاقِيدٌ .. و تُفاحُ ..
و لَو فَتحتُم شَرايَينِي بِمَدِينَتَكُم ..
سَمعتُم في دَمِي أصَواتٌ من رَاحُوا ..
زراعَة القَلبِ .. تَشفِي بَعض من عَشِقوا ..
و مَا لِقلبِي .. إذا أحَببتُ .. جَراحُ ..
و هَذهِ ألكسَندرة ..
لَعلهَا إضَافة جَدِيدَة في حَياةِ رَجلٍ قَدمَ قَلبهُ قُربانًا لِدمشق ، أو رُبمَا لَعنة قَد نَزلت في صَدرِ فَنّانٍ لم تَعتَد رِيشَتهُ رَسم النِساءِ ، و لا تُجِيدُ لَوحَاته سِوى إحتواءِ مَدِينَة وَاحِدة يُقَالُ لَهَا :
دِمشق ..

لم أكُن أعْلم إلى أينَ ستأخذني تلك َالكَرزِية بنُضوُجِهَا ، و لَكن بَدأتُ مُغَامَرة الأعمَى في كَوكبٍ كُلِ أهلِهِ يُشَاهِدونَ بَعَينٍ طَبقِية مِحورِية حَتى الاشَياء مَا خَلفَ السَراب ..

أَنَا الأعْمى الذِي أجرُ حُبِي من مَدِينَة إلى مَدِينة ، أُفاخِرُ بِعَاصِمة بِدايتُهَا ياسَمِين و نِهَايتُهَا جَبلٌ شَامخٌ عَصِيٌ جَبار أمَامَ كُلِ طُغاةِ العَالمِ يُقالُ عنهُ قَاسَيون ..

أَنَا الأعمَى الذِي يَرى هَذا الكَون بِكَفةِ ضَبابٍ و يَرى العَودة إلى مَنشَأهِ بِكَفةِ لَونٍ وَاحدٍ ، لَونٍ يَسَيرُ عَارِيًا منَ المَاءِ و الهَواءِ ، لَونٌ لم يُولد من لَونٍ آخَر ، لَونٌ أصلي لَم يَتَوصّل إلِيهِ أحد .. رُبمَا لَونٌ مَائي يُقَالُ لَهُ بَردَى ..

يا بَردَى ، يَا سَاقِيةِ كُلِ غَرِيب ، إسقِي إغترابِي و عَذابِي .. يا بَردَى أنَا الظَمآنُ يا سُقيا العِطَاش ..

وَحَدهُ الخَيال ..

من نُطلِقُ عِنَانَ حُرّيتهُ ..

لأنهُ الشَيء الوَحِيد الذي نَستَطِيع أن نَحتَفِظ بِهِ لأنفُسِنَا ، نُرَتِبُ مَا شِئنَا من فَشلٍ و إحَباطَاتٍ و تَخبُطَاتٍ دَاخِلِية ، وَحدَهُ الخَيال من يُجَالِسُ أحَلامنَا ، يُطلقُ لنَا تنهدَاتهِ ..

و بَينَ شَهِيقٍ و زَفِير ..

نَبدأُ نَبنِي على السَرابِ قَنَاطِرَ السَيرِ إلى المَجهُول ، لَنَا في زَحفِنَا فُتَاتَ الوَقتِ ، و خَرابَ الأُمنياتِ ، و آثارَ كَلمَاتٍ لم نَقُلهَا ، و أَطلالَ أسَرارٍ كَأسرابِ النَحلِ ، و مَا إن تَصِلَ إلى مُبتَغاكَ حَتى تَكتَشِفَ بأنَكَ رُكَامَ إنَسانٍ ابتَلعَهُ الكِبر و طَغى عَليهِ الشَيب ..

أيّهُا الشَيب ..

امضِ إلى شكِكَ المَحتُومِ .. و دَع لَنَا أولِ لقاءٍ في ضِيافةِ الحُبِ ..

ثَمَانٌ و أربعَونَ سَاعة ، و يَحلُ الكَرزُ الرُوسِي ضَيفا في فِنَاءِ اليَاسَمِين ، هَل سَتَنجلِي سحَابَةُ الإنتِظار !؟ .. لا أحَد يَعرفُ مَا مَعنى الفنَاء سِوى مَن مَضَى تَحتَ التُراب ..

سَاعَة بَعدَ سَاعة ، و دَقَيقَة بَعدَ دَقِيقَة ، و الوَقتُ يُمَرِّر حَدَ سَيفَهُ على تَرقُبِي ، كُل مَا لا تَعرفِهُ من أحَاسِيس تَأتِيكَ مُشهِرةً سِهَامَهَا كَالتَوتُرِ و القَلقِ و التَعرُقِ ..

تُرِيد أن تَبدو أنِيقا و أجْمَل من ذِي قَبل ، بِعطرِكَ و هِندَامِكَ و تَسَرِيحَةِ شَعرِكَ و طَرِيقَةِ حَدِيثِكَ و أسلوبِ جَلسَتِكَ ..

تَصنَع مَا بَدا لَكَ لَياقَة ، و اكتَسِب من حِرباءةِ البَرارِي تَلوّنِهَا ، هِيَ الشِفاهُ المَطلِية بِالشَغف من تُجرِدُكَ من أُبهَةِ التَصنُع و التَقنُعِ ...

على إنَاءِ التَرقُب أعَددتُ لهَا الطَعَام ..

على مُلاحَقَةِ عَقارِبِ السَاعَة تَوقفَ الزَمَانُ عندمَا رَنَّ جَرس المَنزِل ، وَقعَ قَلبِي بِعطرِ جَاذِبِيتِهِا ، و تَبلّلَ جَبِينِي بِالتَعرُقِ ..

فَتحَ اليَاسِمِينُ بَابَهُ للكَرزِ ..

مَا أشَهى النَصَاع الذِي يُرافِقُ كُلَ مَلامِحَهَا ، يا لِلمعَانِ شَفتِهَا ، أحسُدُ الأيقُونة الفَيروزِية المُستَقِرة على صَدرِهَا ، يا لِأزرارِ قَمِيصهَا السَرِي الذِي طَوى جَسَدهَا ..

جَثَى الياسَمِينُ على نَبضِ شَغفَهِ مُتَسمِرًا ..

ـ مَسَاء الخَير ..

أيُ مَساءٍ و أيُ خَيرٍ هَذَا !! ..

هِيَ المَساءُ المُشبعِ بِالخَيرِ ، و نحنُ ضَحاياهُ و أشلاءُ خَيرهِ ، لَحَظة صَمتٍ تَجمّدت المَجرّاتِ عنِ الدَوران ، سِتونَ ثَانِية منَ الصَمتِ !! ..

ـ أخبرنِي .. هَل تُرِيد أن أبقَى واقِفة أمَامَ البَاب ! .. تَحدَّث بِكَلمة وَاحِدة ..

أفقتُ من غَيبُوبَتي.

ـ عَفوًا .. أنَا أعتَذِر .. مَسَاء الخَير .. تَفَضَلِي بِالدُخُول ..

ثَلاثِين ثَانِية مَضَت على خَلعِ حِذائِهَا المُبَطّن بِفَروٍ لا أعَلمُ ما نَوعه ، و لَكِن أعلم بِأنَ النَقاء لا يَرتَدِي إلا رِقَةِ كمَالهِ..

ـ هممم .. رَائِحَة شَهِية ، لم أنتَاول وَجَبةَ الإفطَارِ لأحظَى بِطَبقِكَ الشَرقِي ..

بَعد إعجَابٍ بِرائِحَةِ الطَعامِ ، ابتَسَمَ الكَرزُ بشُبهة المَكرِ ، أهي مَطِية أم طَبِيعة ، لم أكتَشف بَعد مَا خَلفَ هَذِهِ الإبتِسَامة ..

ـ مَا هُوَ الشَيء الذِي أعددتهُ !؟ ..

سَمعتُ أهل الهَوى يَقولونَ :

الإعجَابِ بِالإعجَابِ ، و الإبتِسَامة بِالإبتِسَامة ، و السُكوتُ قِصَاص ..

أطلقتُ ابتِسَامتِي بِخفَّةِ المَوقفِ المُباغتِ لِأحَادِيثهَا ، و كَأنّهَا لَاحَظت بِحدَةِ دَهشَتِي بِهَا ، فَأرَادَت أن تَكسِرَ تَسَمُري لِتَفاصِيلهَا ..

يا لِذَكائِهَا .. !! ..

ـ تَفَضَلي إلى هُنَا آنِسَتِي ..

سَحبتُ الكُرسِي و جَلسَ الثَلجُ أمَامَ بُركَانِي ، و لَكن الذَوبان كَان مُعَاكِس ، و الذِي أجلسنَا بِمِيعادٍ مُعد ، لم أقرَأ بِكُلِ حَياتِي بِأنَ النَار تَذُوبُ دَهَشَةً أمَامَ لَوح جَلِيد ..

أشعَلتُ شَمعدانًا ثم سَكبتُ في كَأسِهَا نَبيذَ العِنَبِ الرِيفِي ، و وَضعتُ في وِعَائِهَا قِطَعة من البَطِ المَشوي بِالارُزِ و المُكَسَرات ..

و قَلِيلٍ من سَلطَةِ الفَتوش الدِمشقِي..

مَدَّ الكَرزُ أنفَهُ يَتَتبعُ رَوائِحَ دِمشق ..

ـ آآآآآه .. كَم رَائِحتهُ شَهِية ..

ـ تَفَضلِي أهلاً و سَهلاً .. لَقد سُررتُ بِمَجِيئِكِ ..

ـ صَدّقنِي بِأنَنَي أوّل مَرّة أُدعَى إلى طَعَامٍ مُعدٌ في المَنَازِل..

أخفيتُ في نَفسِي قَولهَا ، شَعرتُ بِأنهَا طَافَت بِأسَرِةِ الرِجَالِ حَتّى ارتَوى الكَرزُ فُحشًا !! ..

و يبدو أنها لَاحَظَت هَفوتهَا ، و لَكني عَلمت بِأنهَا سَقطت من فَمهَا سَهوًا ، و عَلمت بِأنَ خَطَأ الذَكِية عن ألْف خَطأ لِأُنثَى غَبِية ..

ـ من عَلّمَكَ طَهي الطَعام ! ..

كِدتُ أقولُ لهَا دِمشق ..

و لَكن من طَافت رِئتَاهُ بِعَبقِ اليَاسَمِين ، لا يَعرفُ للكَذِبِ طريقا .. قُلتُ :

ـ أُمّي ..

لُقمة بَعد لُقمة .. و مَضغة بَعد مَضغة .. رَاحت تَتأمّلُ جُدران مَنزلي الذِي تُغطِيهِ اللوَحات الزَيتِية ..

ـ هَل أنتَ تُحبّ ! ..

ـ عَفوًا !!؟

ـ أقصِد هَل تُحبّ هَذهِ المَدِينة التي تَرسُمُهَا !؟ ..

كِدتُ أقولُ لَهَا بِأَنني بَدأتُ أُحبُكِ أنتِ !؟ ..

ـ إنهَا العَاصِمة دمشق ، إنهَا المَدِينة التي وُلِدتُ بِهَا ..

وَطن لَهُ رَحمٍ دمشقِي من الصَعبِ أن يَنسَاهُ أبنَاؤهُ ..

ـ مَتى سَوفَ تَرسُمنِي !! ..

ضَحكتُ حَتى سَالت دُموعِي عَجبًا ..

ضَحِكَ الكَرزُ لِإبتِهَاجِي ..

ـ أنَا مُتأكِد بِأنَك لا تَستهزئُ بِي ، أنَا أعرِف بِأنَ من يَحمل هَذهِ الأحَاسِيس بِكَافَةِ هَذهِ الألوانِ الصَاخِبة لا يُحبُّ السخْرِية من النَاس ..

السُخرِية ..

بِدَاية كُلِ نُور هِيَ السُخرِية ..

و تُعدُ السُخرِية مَعصِية ، شَرعَهَا إبليس عِندمَا كَان في الجَنّة ، أمرهُ اللهُ أن يَسجُد لآدَم ، فَأبَى أن يَسجُد و قَال :

ـ أيُعقل أن أسجُد لمَخلوقٍ مِن طِين !! ، و أنَا الأقوى خَلقًا و خُلقًا و قَد خلقتَنِي من النَار ! .

إن السُخرِية مَصدرُهَا التَكبُر، و هذَا دَيدن الفَاشِلِينَ في كُلِ أنحَاءِ شُقوقِ الفَشَل ، لم أعُد ألتَفِت خَلفِي عِندمَا أشعُر بِأنَنِي وَقعتُ في فِخَاخِ السُخرِية من أيّ أحَدٍ كَان ..

لأنَ الوَقت مَرهُون في قَبضَةِ السَاخِر ، طَبعًا إن ألقَيتَ لهُ بَالاً ، و إن تَركتَهُ للِسَانِهِ فَإنهُ سَيموتُ غَيظاً ، دَعْهُ لشُرورِهِ و امضِي إلى مَا كُنتَ تُقدِمُ عَليهِ ..

دَائِماً كُنتُ أعتقِد بِأنَ إعطَاء القِيمة للذِي رأى فيكَ غَيظًا ، هُوَ أن تُعطِيهِ ما يُرِيد من رُدودٍ و وَقاحَةِ لِسَان ، لا أبدًا .. إيّاكَ و أن تَنخَدِع ...

أنتَ بِمُجرَد أن تُكلمهُ بِأيةِ كَلمة فَاعَلم بِأنَك قَد سَقطتَ فيمَا يُرِيد السَاخِر منِكَ ..

ألكسَندرة ..

يا كُلَ ألواني ..

مَا هَذا الجمَال الذِي سَطى على ملامِحَكِ آنِسَتِي ..

انتَهى الكَرزُ من تَناوُل وَجْبته ، و بَدأ يَغسِلُ يَدهُ بِالنُورِ ، و يُجَفِفُهَا بِمنشَفةٍ تَمنّيتُ أنَنَي كُل مَنَاشِفِ العِطر ، و لَكن أنَا لم أشَبع و لم أرتَوي من النَظَرِ إليهَا ..

كَانت مَشغولة بِالنَظَرِ إلى اللوَحاتِ التي لم تَتَرُك للجُدرانِ أيةِ فُسَحة خالية ، و كُنتُ مَشغولاً بِهَا ، بُكلِ خصلةِ شَعر ، بِكُلِ لَمعَةِ عرقٍ ، بِكُلِ بَرِيقِ سِنٍ ، بُكَلِ التَفاصِيل التي كُنت مُغَيبًا عنَهَا ..

ـ هَل تَشربِين الشَاي !؟ ..

شَعرتُ بِأنَهَا تُرِيد أن تَتَعرّف عليَّ بِطَرِيقَةِ المُتحَرِينَ و النُقادِ التَشكَيليين ، و لكن أنَا من أرسُمُ الأحْجار و الجُدران و الأزقّة ، عُزوفا عن مُخَالطَةِ البَشَر ، أُرِيد أن أشكُو همِّي

للبَياضِ ، و أضَعُ أحَمَالَ مَنفاي و مَعصِيتِي على جُنونِهَا التَقِي ..

و كُلَ مَا زَادَ الشَوقُ فِي نِارِي جَلدًا ، رَسمتُ و رَسمتُ و رَسمتُ حَتى تَضلعَت شَرايينِي ، و انفَجرَت آمَاقِي بِالدُموع..

أنتَظِر مَولاتِي كَي تَأمُرنِي بِإعدَادِ الشَاي ..

ـ نَعم يَسُرنِي أن أشَرب الشَاي مَعك ..

أعطَيتُ ظَهرِي للبَياضِ ، لأُعدَ لهُ خَلطتِي و شَهِيتِي و شَغَفي ، و وَقفتْ على مَقربة من مِرآةٍ مُعلّقة على أحَدِ الجُدرانِ تُرتبُ شَعرهَا ، و تُعِيد تَرتَيبَ مِكياجَهَا ..

هَل القَمرُ بِحَاجَة إلى تَبدِيلِ نُورِهِ بَينَ فَينَةٍ و أخرى !! ..

هَذا اللُغز الذِي حَيّرَ العُلمَاء ، و الذِي حَيرَ تَجَسُسِي عَليهَا خَلفَ مَوارِبَ البَاب ..

هِيَ اللهَفة التي تَجعلُ منِكَ مُراقباً دُولِياً للجَمَالِ ، و تَضَعُ في قَبضَتِكَ كُلَ موَازِينَ الكَونِ لِتَصِلَ إلى شَغَفِكَ ، و لَكن تَلِفت أعصَابنَا من كُلِ شَيء ..

أصبحَ كُل شَيءٍ جَاهِزًا للسَطوِ ..

بِنقودِكَ تَستَطِيع أن تَحصُلَ على أيّ شَيءٍ من وَجباتٍ عِلمِية و شَهوانِية و رَغباتٍ لم تَكُن بِالحُسبان ..

و هُنَاكَ تَخفيضَاتٍ إن أحبَبَت على جَمِيع المَاركَاتِ من أثاثٍ و مُنظِفاتٍ و مَوادٍ غِذائِية و لُحُومٍ حَيوانِية و حَتى بَشَرِية ..

كُل شَيءٍ مَعروض للفُرجَة ، كُل شَيءٍ مُغلّف بِالشَهوة ، حَتّى أنَ الطُرق لم تَعُد تُؤدِي إلى رُومَا ، كُل شَخصٍ اتّخذَ طَرِيقًا لِنَفسِهِ ، على قَدَرِ جَيبه و مَصلحَتِهِ و شَهوتِهِ ..

كَانَ الحُلمُ فِيمَا مَضَى ..

في ثَلاثِ كَلمَاتٍ فَقط ، امَرأة ، أو مَنصِب ، أو مَال ..

اختَلفت المَوازِين ، و انَقلب الحُلمُ على الحَالِمِين ، و عَادَت الأوهَام إلى القُلوبِ بِخُفِي حُنَين ..

شَبابٌ بِأعمَار الزُهُورِ على سَطحِ هَذا الكُوكَب مَعطوبِي أحلام ، لا شَأنَ لَهُم بِالغَد ، و لَيسَ من اختِصَاصهم الأمْس ، لَقد أصَبحَ الإكتِئاب جُزءً لا يَتَجزّأ من حَياةِ أي فَردٍ ،

حَتى غَرقَت المَصَاحُ النَفسِية بَينَ كُلِ زُقاقٍ و زُقَاق.. و هُنَاكَ أُناس رُبمَا لم تَسمع عَنهُم ، هُم مِثلُكَ من بَني جِلدَتَكِ ، ضَربٌ من البَشَر ، عُطِبَت أحلامُهُم إثَر مَوقِفٍ ، فَلجَؤوا إلى الخَلوة مَع الوَهم ، و ما إن تَمكّنَ الوَهم منِهُم ، حَتى جَردَهم من ذَواتِهِم ، وعرّاهم عن أهَدَافِهِم ، من هُنَا يَبدأُ السُقوط ..

المَلل الكَسَل الضَعف الوَهن قلةِ النَوم ..

و كُل هَذَا الدَمار مَبنِي على مَوقفٍ تَافهٍ كَسَرَ صَاحِبَهُ .. نَحنُ نَعِيشُ في مُجتَمعٍ أغلبَ مَن فِيهِ أهَدافهُ هَدامة ، و تَجلبُ العَار لِصَاحِبهَا و للغَير ، و هُو حَشو الأُنوفِ في ما لا يعَنِي أصحَابهَا ، و جَلبِ المَصَائِبِ للغَيرِ ، كُلَ شَخصٍ لَديهِ فِكَرة يُرِيد أن يُطَبِقَ أيدلوجِيتهَا على الطَرفِ الآخَر ، و لَكأنَ فِكرتهُ إنجيلٌ مُقَدّس ..

لو تَركَ بَعض النَاس تَطفُلهُم ، و إشَغَال أنفُسِهم فِيمَا لا يَعنِيهِم ، لمَا وَجدتَ مَذبَحةً ..

و لَكن كَمَا كَانت تَقول أُمّي :

دُود الخَل منِهُ .. و فِيهِ ..

عُدتُ أحملُ فِنجَانَ الشَاي ، و بِجَانِبِهِ قِطَعٌ منَ السُكَر ، وكَانت مَشغولة عَني بِي ..

ـ كَم قِطعة منَ السُكر !؟ ..

ـ من فَضَلك قِطعة وَاحِدة ..

صَوتُ المَعلقة في الفِنجَانِ كَأجراسِ كَنِيسَةِ الزَيتون ، من سَيستَمعُ إلى صَوت الحُبِ الدافِئِ هُنَا !؟ ..

لا أحَد سِواي .. من سَيشَربُ رَشَفاتِ الغَرامِ !؟ ، لا أحَد سِواي ..

دَائِماً أقول : لا أحَد سِواي ..

إلى المَجهُولِ أسَيرُ بِرِيشَتِي إلى عَالمِ الغَيبِ ، عَالمٌ مُستَقبلهُ مُخِيف ، و كلّ مَا زَادَ عُمرُ هَذا الكَونُ سِنَاً ، قُلنَا هَا قد اقتَربنَا من الهَاوِية ، وعَلى كُلِ شَخصٍ أن يُنقِذَ نَفسَهُ بِنَفسهِ..

لا أحَد سِواي يَعرِفُ للحُبِ سَبِيلاً ..

هَل هَذَا هُوَ الحُبّ الذِي كَانت تُحدِّثنِي بِهِ أُمِي !؟ ، إنَنَي لم أبدَأ بِالحُبِ و أشعُر بِأنَنَي أُجلدُ تَعَبًا ، كُل شَيء يَقولُ لِي حَولي :

أعيدونِي إلى بَطنِ أُمِي ..

لا أُرِيد أن أحتَرِقَ تَعَبًا ، هَذَا الكَوكب لا يُشبِهُنِي ، إنهُ يُشبه جَهنّم ، و مَع أَنَنِي لم أتذوّق مَا يُسَمى بِالحُبّ إلا بَعد مَا قَرّرتُ أن أموتَ في سَبِيلِ هَذهِ المُغامَرة ..

كُنتُ أُحبُ مَدِينَة يُقَالُ لهَا دِمشق ..

مَدِينة حَطَمت كُلَ تَاءاتِ التَأنِيثِ ، بِكُلِ وِشَاحَاتِهَا ، و عَواصِمهَا ، و مُقتَنَياتِهَا ، و تَارِيخِهَا ..

إنهَا مَدِينة مُجَرّد إن حَاولتَ أن تَتَذكَرهَا فَسوفَ تُزِيلُ من جَحِيمِ هَزَّاتِكَ النَفسِية تِلكَ التَعَاسَة ، فَمَا بَالَك الذِي عَاشَهَا و عَاشَ مَعَهَا و بِهَا !..

إنَ مِثَل هَذهِ المُدن العَامِرة بِالتُقَى لا تَخون إلّا مَن خَانهَا ، كَأمَثالَنَا نَحنُ الذِين تَركنَاهَا للطُغَاةِ ، و لَكن كَيفَ لشَابٍ أعَزَل لا يَملكُ سِوى ألوَانهُ و أوراقَهُ يُرِيد أن يُواجهُ هَذا العَالم المُتمَرس على قَتلِ الياسَمِين ..

كَحمَامَاتٍ أُمَوِية نَحنُ نُحلقُ من مِئذَنة إلى سَارِية إلى هَاوِية ، في حَقائِبنَا هُموم وَطن و وَطن و وَطن ..

أذكُرُ بَعدَ أن قَطَعتُ قَوارِبَ المَوت التي أقلت أحلامَنَا إلى أولِ عَتَبة من بَوّاباتِ أُوروبا ..

نَزَلتُ في العَاصِمَة أثِينَا في أَحَدِ الفَنَادِقِ ..

كَانت الأموالِ التي مَعِي لا تَكفِي لألجَأ إلى الفَنَادِقِ ، و لَكن قُلتُ في نَفسِي لا بأسَ بِالرَفاهِية على حِسَابِ الإفلاسِ القَرِيب ، عِندمَا كَانَ المَوتُ يُدغدِغُنَا على سَطحِ البَحرِ ، من بَعدِ أن قَطعنَا إثنَتا عَشَرَ سَاعَة بَين ضَياعٍ و لِقاءٍ ، و المَوجُ يَلطِمُ قُلوبنَا ، و لا سَامِعَ لِصوتِنَا سِوى قَاسِمَ الزُرقة المُشَتَرك بينَ السمَاءِ و البَحر ، أخَذتُ عَهداً على نَفسِي إذا وَصلتُ إلى اليابسِة أن لا أتذمَر أبدًا ..

لأنَ الذِي يَغرق في البَحرِ لَيسَ كَالذِي يَستَلقِي على شَواطِئِهِ يَستَمتع بِجَمَالِ رِمَالهِ ..

هُوَ المَوتُ وَحدهُ من كَان يَتَرصَد كُل من مَعَهُ الجنِسية السُورِية ، و لَكأنهُ مَوسِم قِطَافِ الرُؤوسِ و ابتِلاعِ الأجَسادِ السُورِية ، في كُلِ مَكَان يُطَردونَ و يُهَانُونَ و يَذبحُونَ و

تُدَاسُ كَرامَتهم ، و لَيسَ المَوت فَقط من يَتَرصَد الاعنَاق و الأروَاح ..

حَتى الكَامِيرات العَالمِية و الشَاشَاتِ الثَقِيلة و القَنَواتِ الإخَبارِية تَصطادُ دِمَائِنَا لإستِجلابِ شَفقَةِ العَالمِ ..

عُيونٌ شَهِيرة فيهَا من النِفاق ما يَجعلُكَ تَتفُلُ على خَارِطَةِ الكُرَة الأرضَية بِرُمتِهَا ، و وَقائِعٌ قَد مَرَرتَ بِهَا و جَمعتَ من ثِمَارِهَا تُعسَاً يُشبعُ هَذا الكَون ، أشَياء كُنتَ قَد قَرأتهَا و شَاهَدتهَا عَبرَ المَواقِعِ العَالمِية و مُحَاضَرات و إنجَازَاتٍ مَا يُهدءُ بَالكَ و يُربتُ على ضَميركَ و يهمسُ في أُذُنكَ :

لا تَقلق الدُنِيا لَا زَالت بِخَير ..

كِذبة عِشنَاهَا ..

عِندمَا كَسَرنَا أنفُسَنَا لجِيرانِنا الأشِقاء ، و فَتَحنَا لَهُم أبوابَنَا ، لَيسَ من أجلِ الخَير لا والذِي جَمعَ بينِي و بَينَكُم في كِتَاب ، بَل لأنَ الخَير مَطِية نَحنُ تَرعرعنَا عَليهَا و نَمَتْ مَع أحلامِنَا ..

قَاسَمنَاهُم كِسرةَ الخُبزِ ، حَتى قُلنَا من العَيبِ أنَ تَدعُوهُم بِالجِيران ، و زَوّجنَاهُم من بَنَاتِنَا من أجلِ كَسرِ العُنصُرِية ، و أنجبنَا منهم و أنجبوا منَا و كَانَ الحُبُ بَينَنَا و بَينهُم سِجَال ..

يا رَباه مَا الذِي حَدَث ..

كُنَا و لا زِلنَا شَعبٌ مُنتِج ، لأنَ وَطن في عَاصِمَة تُسَمى دِمشق لا تُنتج لِهذا الكَون إلا عِطراً و نَصَاعاً و بَياضاً تأسِياً بِاليَاسَمِين ..

رُغَم القَبضَة التي حَكَمت البِلاد في كُلِ العُصَورِ إلى عصرِنَا هَذا ، قَامَ الشَعبُ يُواجهُ لُصوصَ الوَطن و لَصوصَ الشَعبِ المِسكِين ..

تَعَايشنَا مع الفَسَاد ، لَيس خَوفاً من الفَسَاد ، و لكِن خَوفاً من الإنقِراض ، لانَ الوَطن أصَبحَ خَلِيطَاً بَينَ عَربِي و أعجَمِي ، و للحَقِ أقول لا فَرقَ بينَ عَربي و أعجمِي إلا بِالعَملِ و بِنَاءِ هَذا الوَطن ، فَكُنَا الشَعب المُنتِج الذِي لا يَركع و لا يَنحَنِي لأيِّ ظَالمٍ كَان ..

رُحنا نُضمِدُ جِراحنِا و إنكِسَارَاتِنَا بِالصَمتِ ، لأنَ الكَرامة شَيء مَسلوب ، و الرِقاب شَيء مُستَعبد ، و رُغمَ هَذهِ الخُنقة في حُلمِ الحُرِية و أن نَكونَ كَبَقِيةِ الدولِ المُتَقدِمة قُمنَا على الوَجع لأَنَكَ عِندمَا تَسَمع بِشَيءٍ اسمهُ :

سُورِي ..

يَعنِي إرادَة و تَحمُل و هَدف ..

لم يَكتفِ الطُغَاة بِالنَظَرِ علينَا و نَحنُ نَحبو إلى عِزةِ النَفسِ ، جاءَنَا بِرُعبهِ ، لأَنَهُ البُعبُع الذِي لا بُعبع بَعدهُ و لا قَبلهُ ..

مَاذا يُرِيد بَعد !؟ ..

و هل اللِص يُرِيد أن يُصَفّق لَنَا . !؟ . لا و الله ...

جَعلَ من نَفسِهِ رَباً يُعَبد ، و طَمعاً فِيمَا عِندنَا من حُلمٍ ، جَاءَ لِيقتَسِمَ أيّ حُلمٍ إقتِصادِي ، و أي شَخصٍ أبى أن يَخَضع للقَوانِين التي تَصُبُ في جَيبِ لِصِّنَا فَمأواهُ السِجن..

أليسَ السِجنُ بِقَرِيب !! ..

نَعم إنهُ قَرِيب جِداً ..

و أقربُ من حَبلِ الوَرِيد ..

أينَمَا تُرِيد أن تُوَجه قِبلتَكَ سَتَراهُ هُنَاك يُراودُكَ ، و يَدعُوكَ إلى زِيارَة بِتُهمةِ خِيانَةِ الوَطن ، أو خِيانَةِ الدَولة ، و لأنَك جُزءٌ من هَذا النظِامِ المُتهَالِكِ فَأنتَ عُنصُرٌ صَغَير مُذ أن جَاءت بِكَ أُمُكَ إلى أن تُدفن في بَطنِ الأرضِ .. أسمَاء جَمِيلة لأفرُعٍ أجمَل و أبهَا ..

نَعم الدُنِيا ، لا زَالت بِخَير ..

و خَير الأمنِ و الأمَانِ في كُلِ مَكَان ، و هَذا بِفَضلِ قَمعِ أيةِ حُرِية لنَا ، تَخَيل بِأنَ 90 % من أبنَاءِ الوَطن قَد زَاروا الافرُع الأمنِية ، لَيسَ سِياحَة لا و الله ..

بَل مُقَابلاتٍ بِدَايُتهَا صَفعة و نِهَايتُهَا مَرضٌ نَفسِي يُدعَى الخَوف قَد يُؤثِر بِكَ مَدَى الحَياة ..

هَل سَمعتَ بِفَرعِ فِلسَطِين المَعروفِ بِفَرعِ :

235 !! ؟

إن كُنتَ سُورِيًا أو لُبنانِيًا أو عِراقِيًا أو أُردُنِيًا أو زُرت وَطنَنَا الحَبِيب يَومًا فَلا بُدَ لَك و أن زُرت هَذا الفرع أو سَمعتَ بِهِ ..

و أنَا على قَيد القلم .. و أنَا هُنَا مُعَافاً في بَدنِي عِندِي قَوتَ يومِي أكتُبُ بِدمعِ الحِبرِ لأخوةِ الظَلامِ ..

أرَواحٌ بَشَرِية ، و هَياكلٌ عَظمِية ، و أشباهُ بَشَرٍ كَانَ يُطلقُ عَلِيهم اسمُ إنسَان ..

و اليَوم يُطلقُ عَليهم رُكامٌ منَ العِظَام ، هُنَاك و تَحتَ الأرضِ و في زَنزانات الظُلمِ أكتُبُ لهُم :

أنَا آسف ..

هَذا الإعتِذار بِحدِ ذَاتهِ ظُلم ، لأنَنَا لم نُقدِم لَكُم سِوى الكَلمَات ، و بَعضِ المَشَاعِرِ ، نَحنُ يَا سَادَة الحُرِية التي يَطويهَا الظَلام نَعيشُ مَعكُم كِذبةَ الحُرِية ، التي قُتلنَا من أجلِهَا و اجَلِ أحرُفهِا .. لقد فَقدنَا كُلَ شَيءٍ حَتى أنفُسنَا فَقدنَاهَا ..

لا وَقتَ للحُبّ ..

كُلمَا ظلمتْك الذَاكِرة ، بنَوعٌ من أنواعِ السَحبِ إلى الوَراءِ ، بِطَرِيقة إستَفزَازِية ، فَأنتَ مُرغمًا عن أنفِكَ للعَودة على الخَلف ، لأنَكَ جُزء منهُ ، جُزء من الحَقِيقَة التي نَهرُبُ منهَا ، و لكن لا مَفَرّ ..

مَاضٍ نَحنُ عِشنَاهُ بِحَذافِيره ، و أصَعب من ذَلكَ كُلِهِ أن تَهرُبَ من مَكَان إلى مَكان و مَاضِيكَ يُرافِقُ ظِلكَ ، و يُجَالسُ وحدَتكَ ، و يُعكِّرُ صَفوَ مِزَاجِكَ ، و يُرهِقُ وَحشَتكَ..

أسَبابٌ كَثيرة أوقفَت تَفكِيرنَا بالمُستَقبل ، و أوّل سَبَبٍ بأنَنَا لم يَعُد لَنَا مُستقبل أبدًا ، ثَلاثة أو أرَبعَة أجَيالٍ مُسِحَ منُهم كُل مَا هُو جَمِيل ، التَفكَير كُلهُ مُنصَبٌ في جَلبِ لُقمَةِ العَيشِ المُغمَسَة بِالذُلِ ..

أعَدادٌ ضَخمة من الأبَرِياء كُل يَوم يُهَاجرونَ من مَكَانٍ إلى مَكَان ، حَامِلينَ ذَاكرَتَهُم و مَاضِيهم مَعهُم أينمَا حَلوا و ارتَحَلوا ..

أطَفال بِأعمَارِ الزُهُورِ ، كُلَ يَومٍ تَلتَقِطُ ذَاكِرتهم أسْوأ المآسِي ، حُروبٌ و تهَجِير و قَتلٌ و تَجويع و تَعَرّي من جَمِيع مُقَومَاتِ الإنسَانِية ..

هُنَاكَ لَقطَات حَادة ذُات حَدِّين ، و إنَ مَرَّ بِهمَا صَاحب المَاضِي الذِي يَقطُرُ دَمًا فَإنهُ مَجروحٌ مَجروح لا محَالة ..

كَيفَ تُرِيد لِطفلٍ إلتَقطَت ذَاكِرتهُ طَرِيقًا خَاليًا من الحَياة ، أو طَرِيقًا اقتَحمتهُ النِيران ، أو طَرِيقًا بَحرِيًا تَحتَهُ حِيتَانٌ جَائِعة و فَوقهُ سَمَاءٌ لَامِعة !!؟

كَيفَ سَينَسى أطفَال فِلسَطين المأساة الكُبرى منذ ثمَانِية عُقودٍ و نَيف !؟

إسَأل الذِينَ بَلغوا من العُمرِ عِتِيًا ، إسَأل مَفاتِيح مَنَازِلهم التي أخذُوهَا مَعهُم على أمَل أن يَعودوا في اليومِ التَالي ، و مَا أطوَلهُ من يَومٍ ..

قُل لهُ ، مَاذا تَحملُ من مَاضِيك !! ..

سَيقولُ لَكَ : بِدنَا نِرجع ..

دَقِيق في كُلِ تَفاصِيل حَياتِه ، فِي مِلحِ تَجاعِيدِهِ ، في كَفِ يَدهُ ، في تَعبِ عَينيه ، في إصفِرارِ أسنَانِهِ ، في عُكازَتهِ ، بينَ أوراقِهِ الذَاتِية ، و مُستندَاتِ مُمُتَلكَاتِهِ ، فَتش في خِزانَتِهِ ، تَحرى ثياباً ، نَقب في ذاكِرتِه ..

كُلَ شَيءٍ فيه يَبكي ..

كُلَ شَيءٍ لهُ نواح .. يَنوحُ بِكُلِ مَا أُوتِي المَاضِي مِن وَجع ، أما المُستَقبل!!؟

لا تَسَأل عن المُستَقبل .. لأنَ المُستَقبَل في مَحلِ رَفَعِ عَودة إلى أولِ صَرَخة لَهُ ، على أرضِهِ ..

الضَياع يَنتَشِرُ كَأنهُ عَدوى .. و لا مَلجأُ للذِينَ تُلاحِقُهم الذَاكِرة سِوى الضَياع ، و لَكن لمَاذَا !؟

لأنَ المُستَقبل عِبارة عَن ضَباب ، و كُل وَاحِدٍ منَا يَصنَع هَذا الضَباب بِنَفسِهِ ، بِوهمِهِ و مَاضِيهِ ، و لكَن لا تَلوموا العَاشِقِين لأنَهُم لم يُحَالِفهم الحَظ للنِسيان ، لأنَ النِسيان في قَانُونِهم عِبارة عَن خِيانة لأنُفسِهم و لِمَاضِيهم ، و لكن و لَنَا في اليَتَامَى و اللُقطَاء أسوة حَسنة ، جَاؤوا إلى هَذهِ

الدنِيا و لم يَعرفوا منَ الحَنَانِ سِوى الجُدرانِ التي ضَمّتهُم لِعَالم يُطَلقُ عَلِيهِ عَالم اليُتم ..

و نَحنُ أيضًا يَتامى في كُلِ شَيءٍ ، يتامَى من العَودة إلى سَاحَةِ الدَارِ ، إلى رَائِحَةِ طَعَامِ الأُمّهَاتِ ، إلى هَيبةِ البَيتِ و عَامودِهَا الوَالدِ المُقَدس ، إلى ثَرثَرةِ الأخواتِ ، و مُشَاجرةِ الجَارَاتِ ، و مَحبَّةِ الإخوة ..

كَانَ لَنَا جَار فِلسطِينِي يَعيشُ في حَيّنَا ، العَمّ أبو طَلال ، الرَجُل الطَيب المُحتَرم .. أبو طلال بَلغَ من السنِ شَوقاً ، كُل شَيءٍ يَشي لِشَوقِهِ .. الشَوق بِالنِسَبة لَهُ مِفتاحٍ مُعلّق على جِدارِ بَيتهِ ، سَألتُ حَفِيدهُ الذِي كَانَ أحد أصدِقائِي ..

ـ يا مصطَفى .. مَا هَذا المِفتاح الذِي أراهُ مُعَلق على جِدارِ بَيتِ جَدكَ ، أرَاهُ مِفتَاح قَدِيم جداً ..

ـ إنهُ مِفتَاح بَيت جَدي في حَيفَا ..

إنهُم أُنَاس لم يَخونوا من الذَاكِرة سِوى الرَحيل ، و الرَحيل أَمرٌ قد فُرِض عَليهم ، لأنَ مُواجَهَة المَوتِ لَيسَ بِالأمرِ

السَهَلِ ، و التَعَايُش في وَطن لَيسَ بِوطَنِكَ أيضاً لَيسَ سَهلاً..

و من بَابِ التَنوِيه أُرِيد أن أُسَلّط الضَوء على جُزءٍ من المَاضِي أنَا عِشتُهُ .. و هُوَ أمرٌ يُلازِمُ أيَ شَخصٍ طَموح ، لإنَ البِدَاياتِ القَاسِية في حَياةِ أيةِ شَخصٍ نَاجحٍ مَصحوبة بِنفاياتِ البَشَرِ و أفكَارِهم المُشَلة لِحَركَةِ أي هَدف ، فَترى هَذهِ الفِئَة الفَاشِلة من النَاسِ قَد ألقوا عَليكَ فَشَلَهُم بِعِدَةِ أنواعٍ قَذِرة ..

و دَائِماً كُنتُ أقولُ لِنَفسِي :

أنتَ شَخصٌ قَوي .. لا تَيأس .. هُنَاكَ شَيء جَمِيل يَنتَظِرُكَ..

إنهَا لَيسَت الأحلام ، و لكَن وَضعتُ لِحَياتِي أولوياتٍ عِدة فَكّر بِالمُستقبل ، لَيسَ لأجلِ المُستقبل ، بَل مِن أجلِ أن تَهزُمَ في البداية الظُلم الذِي يَعمل عَليهِ أهل الظَلامِ لَيلاً نَهَار ، و ثَانِياً من أجلِ أن تَهزُمَ المَاضِي .. لَيسَ مَاضِيكَ

الجَمِيل أبداً ، فأنَا لَستُ بِخَائِن ، بَل مَاضِيكَ الممتلئ بالحاسدين الحَاقِدِينَ الذِين لا يُرِيدون للنُورِ أن يَخرُج ..

إنهُ النُور يا قَوم ، سَيخرُج رُغم الألم ، رُغمَ الوَجع ، رُغم المُقتنَعِينَ بِخَيرِ أصحَابِ البِطَانَاتِ العَمَياءِ ، و الظَواهِرِ المُشتَعِلة خَيراً ..

سَألتنِي ألكسَندة ذَاتَ قَهوةٍ ..

ـ أعلم بِأنَكَ مُشَبع بِالمَاضِي ، مَا أجمل شَيء فِيه !؟ ..

صَمتَ النَبضُ على إشَارَةِ الاستِفهامِ يُحَاورُ سُكَر السُؤال ، من أينَ أتَيتَ أيُهَا السُؤال بِهَذِهِ الشَقراء ، أجَابَ الصَمتُ بَعد بُرهَة من رِحلة لا تَتَجاوز الثانِية الوَاحِدة إلى غُرفَةِ أُمِي :

ـ صَندُوقِ أُمي عَلّمنِي أن أُحَافِظ على الذَاكِرة ، لأنَ مَاضِيهَا الجَميل كُلهُ فِيهِ ..

ـ كان يحتوي، بَقايا صِيغَتِها ، مِعطَرَتِهَا ، فُستَان فَرحِهَا ، صُور حُبّهَا ، و عِقداً من الفَيروز كُتبِ على الحَجرِ الرَئيسِي عَليهِ :

دمشَق ..

أهٍ من طَلتِهَا يا ألكسَندرة ..

جَمِيلة حَتى بَردى ، بَهِية حَتى كَنِيسَةِ الزَيتُون ..

أعَيدونِي ..

إلى بُقَعةِ الضَوءِ الدِمشقِية ..

هَكَذا كُلَ يَوم ، مُنذُ أن خَرجَتُ عَارِياً من نِعمة نُطلقُ عَليهَا الأمَان ، إنَ الضَوءَ الذِي يَحلمُ بِهِ من جَعلوا القُبور مَأوىً لَهُم ، لَعمري هُوَ الوَهم في مِقياسِ الأحَياءِ الذِينَ لا يَرونَ الضَوءَ إلا في أوطَانِهم ..

كَيفَ سَتَسير في عَواصِمِ العَالمِ المُظَلمة و عَاصِمَتُكَ مَصَدرٌ للنُور ! ، أتَقصِد بِدمشق أنهَا عَاصِمة الشَمسِ !؟

كَيفَ غَابَ عَن العُلمَاءِ الذِينَ يَسبحونَ في هَذا الكون مَعلومة اكتَشَفها عَاشِق !؟ ..

فَكُلُنَا يعَلم بِأنَ المَجراتِ و مَا فِيهَا من كَواكِب و أجرامٍ في السَمَاءِ عَامة و في المَجموعة الشَمسِية خَاصَة لَيسَت ثَابِتَة! ، بل على العَكسِ تَمَاماً إنهَا مُتَحركة و تَدورُ حَول نَفسِهَا و حَولَ الشَمسِ أيضاً ، فَكُل مِنهَا لَهُ مَسَارهُ الخَاص ، حَيثُ لا يَعتَرِضُهَا أي شيء آخر ..

كَذَبَ العُلمَاءُ و لو صَدَقوا ..

إنَ حَرَكَة العَشقِ بَعد أربعَةِ عُقودٍ منَ الخَراب ، كَانت كُلُ حَواسِي تَدورُ حَول المُدن و العَواصِم ، و لكِن مَسَار دَوارَنهَا عَاصِمة وَاحِدة يَصعبُ الإقِترابِ إليهَا بِسَبَبِ وَهجهَا ، الا و هيَ عَاصَمة أقربُ إلى اليَاسمِن من حَبلِ الوَرِيد ..

كُلُ من دَخلهَا كَان آمِناً ..

كَيفَ لي أن أعُود إليهَا بَعد أن مَات كُل شَيءٍ فيَّ إلا العِشق ..

مَدِينَة كَمسمَارٍ يَدورُ كُل شَيءٍ حَولهَا ، يَسَعى الناسُ منهَا إليهَا ، إنَها عَاصِمَة الجَاذِبِية التي يُخشَى على إيمَانِكَ إن خَرجتَ خَلفَ أسوارِهَا ..

كُنتُ أعرِفُ فِيهَا إن لم تَخُنِي الذَاكِرة ..

مَلامِح رَجُلٍ بَلغَ من العُمرِ عِشقًا ، حَتى تَخَطّى العِشق ، كُنتُ أمرُّ بِجَانِبِ مَتجرهِ في السُوقِ البُزورِية في كُلِ إشرَاقَةِ صَباحٍ و أنَا ذَاهِب إلى الجَامِعَة ..

إعتَادت أُمِي أن تَشتَري الحَلوِيات و الملبَس و السَكَاكِر من مَتجَرِهِ لأنهُ كَان صَدِيقاً لِوَالدِي ، و في ذَاتِ الوَقتِ كَانَ من أمهَرِ الحَلوِانيين في تِلكَ المَعمورة ، فَتجد مَتَجرهُ في كُلِ يَومٍ عِندهُ عِيد ، و لكَأنَ الفَرح لا يَجتمِعُ إلا في مَتَجرهِ..

كُل مَن تَخرّجَ مِن جَامِعة أو مَدَرسَة ، في مُنَاسَباتِ الكِرِيسماس و الفِصحِ المَجِيد ، و عِيدِ الفِطرِ و الأضَحى ، و كُل من جَاءهُ مَولود أو طَهَرهُ أو عَمَدهُ ، و كُل من جَاءَ من سَفرٍ ، أو بَنَى بَيتاً ، أو فَعَلَ عُرساً ، أو شُفِي مَرِيضاً ، في الأعَيادِ الوَطِنِية ، و الَقومِية ، و الدِينِية ..

تَجد النَاس قَد لَبِسوا إبتِسَامَاتِهِم مِلء فِيهم ، و استَبشَروا بِالخَير ، فأرادوا أن يَعقِدوا مع السُكَر صَفقَة فَرح ..

جَاؤوا إلى هَذا الرَجُلِ مُحَمَّلِينَ بِالحُبّ ..

إنهُ العَم :

أبو أفندي القَبانِي ..

طَوتهُ دِمشق في تُرابِهَا ، كمَا كَانَ سُكرهُ يَطوي بِذرةِ اللوزِ ، رَجُل لم يَعرِف من العِشقِ سِوى مَدِينَة وَاحِدة ، كَتَبَ في ليوان مَتجَرِهِ :

من الحُبِ خُلقنَا ، و إلى الحُبِ نطوَى ، و من دمشَق وُلدنَا ، و إلى دِمشَق رَاجِعون ..

هَل كَانَ يَعلم العَم أبو أفَندِي مَا مَعنى هَذا الكَلام !؟ ..

أم أنَا الذِي لم أكُن أعْلم ..

لم أكُن أشعُر بِالكَلمَاتِ المَحفُورة على جُدرانِ دِمشَق و في مَحَالِهَا و مَطَاعِمهَا و على السَوارِي ، إن لكَلِ حَرفٍ قِصَّة و غَصَّة ..

العَم أبو أفَندي القَبانِي ..

لهُ من الأبنَاء سِتة ذُكورٍ و إثنَتانِ من الإنَاث ..

يُقَال بِأنَ لهُ وَلدَان كَانَا يَدرُسَان في جَامِعَةِ دمشق ، و كانَا قَد إنضمَا على الحِزبِ الشُيوعِي في الثَمَانِينَيات ، إثِر النَهَضَة الثَقافِية التي حَولت العَالم من طَاقاتٍ مُستَهلِكَة إلى مَعَاملَ مُنتِجَة ..

سَليم القَبَانِي و عَبد الخَالق القَبانِي ..

إخوة بِعُمرِ الصَباحِ ..

إسمَان مَنسِيان مُغَيبان لا أحَد يَعرفُ عَنهُمَا شَيء أبداً ، لَقد كانا يخَرجَا كُلِ يَومٍ إلى الجَامِعة ، على مَوعدٍ أن يَعودا إلى البَيت لتَجتَمع العَائِلة على طَاولِة وَاحِدة لتنَاول وَجبةَ الغَداء..

إلى هَذا اليوم أبو أفَندِي يَنتَظِر سَليم و عَبد الخَالق ..

إلى هَذهِ السَاعة الطَاوِلة تَنتَظِر قُدومَهَا ، إلى هَذَهِ الثَانِية تَمكثُ أُمٌ بِعُمرِ الخَراب على أعتَابِ البَيتِ تُراقِبُ المَارَّة و تَسأل :

هَل رَأيتُم سَليم و عَبد الخَالق !؟ ..

إسمَان مُخَيفان ، أرادا أن يَكونا لهُمَا مَبدأ ، و لَكن لا مَكَانَ للمَبادئ هُنَا ..

أنتَ تُرِيد أن يَكونَ لَديكَ صَوت ، هَذا يَعني بأنكَ رَبطتَ حَبل مِشنَقتكَ بيدك ، و مع هَذا كُلِهِ فلقَاسيون حِكمة بِثَباتِهِ في حَلقِ دِمشق ..

لَيسَ لِدَمشق لا و الذِي صوّرَ دِمشق و أبدعهَا .. !

بَل ليُعلّمنَا قَاسَيون مَا معْنى أن تَكونَ ثابِتاً أمَام مَوجَةِ اللصُوصِ و الغُزَاة في كُلِ مكَان و زَمان ..

بَاعَ أبو أفَندي مَتجرهُ في ذَاكَ الزَمَان مِن أجلِ أبنَائِهِ ، أرَاد أن يُقدّم الرَشَاوي للحرامِية حَتى يُخرجوا لهُ أبنَاءَه ، و لَكن لم يَفي أحد من تُجَارِ الوَطن بِوعَدِهِ للرَجُلِ العَقور ..

لم يَيأس الرَجُل ، و لم يَحمل حَقائِبهُ كَأمثالنَا نَحنُ العُميان ، رَاحَ يَعملُ عندَ التُجَارِ حَتى كَعَامِلٍ صَغَير ، من أجلِ أن تُكمل الأُسرة حَياتَهَا ..

و هَل بَقي حَياة يا تُرى !؟ ..

يأسَ ما تَبقى من أوْلاده من الدِراسَة ، فَلم يَهنئُ لهُم بَالاً لِيَروا أبِيهِم يعَملُ لَيلاً نَهَاراً كَعَامِلٍ عندَ صِغَارِ التُجَار ، فَلم تَسَمح لَهُم كَرامتهُم لِهذا السِينَاريوا الذِي يُعَد الأقسَى لَهُم في حَياتِهم ..

يَكفي يا أبتَاهُ خَراباً ، هَذا التَعبُ لَيسَ لكَ ، بائِعُ السُكر لا يَليقُ لشِفَاهِهِ إلا الابتِسَامة ..

وَقفَ الابنَاءُ مَع أبِيهم وَقفة جَدٍ ..

جَمعوا مَا جَمعوا مِن المَال ، و استَأجروا متَجرًا صَغيرًا في البُزورية مع ارتِفاعٍ بِأسعَارِ الإيجَاراتِ و العَقاراتِ ..

ليرَة عَلى ليرَة ، و سَهرٍ على سَهرٍ ، و تَعبٍ على تَعبٍ ، و خَرابٍ على خَرابٍ ، و هَمٍ يَجلدُ هَمًا ، اشتَروا مَتَجرًا و سَمَّاهُ :

سَليم عَبد الخَالق القَباني ..

جَمعَ بينَ الفَرحِ و السُكر ، كَمَا أنهُ جَمعَ بَينَ الصَمتِ و الألم ، و كُلمَا تَذكّرتُ قِصَّةَ ذَاكَ الرَجُل شَيء يَهتفُ في أحشَائِي :

أعِيدونِي .

أعِيدونِي ..

إلى المَاضِي العَتِيق ..

هَذا الحَاضِرُ لَيسَ على مَقاسِ حُلمِي ..

لم تَكُن الأحلامُ ذَات مَاركَة عَالمِية بالقَدرِ الذِي لا تَتَصوّرهُ أنتَ ، كَانت على مَقاسِ زُقَاقِ حَيِّنَا الدِمشقِي ، بِدَايتهُ مَنَزِل أبو رَامِي اللحَام و نِهَايتهُ منَزِل أبو فِراس الحَلوَانِي ..

أعِيدونِي إلى نِهَايةِ الحَي ، إلى مَنزِل أبو فِراس ، الرَجُلِ الطَيّب ، الذِي اشتعَل في رأسِهِ الشَيبُ هَماً و غَماً ، هُم وَحدَهُم من سَارَ على مِلحِ دِمشق مَن يَعرف المَاضِي ، مَع أنَ الكون كُلهُ كَان يَلمعُ و بأسعَارٍ دَنِيئة ، يَفتحُ شَهِيتَكِ تَارة.. و تَارة أُخرى يَجعلُكَ تستَفِرغ مَا في قَلبِكَ مِن نَتنٍ ..

رِجَالٌ جَعَل منهُم الِكبَرُ أنبِياءٌ في الحُبِ ..

مِنهُم العَم أبو فِراس الحَلوانِي ..

لهُ منَ الأبنَاءِ مَا يَجعَلهُ يَعَيشُ بينَ الكِرامِ كَريمًا ، و لَكِن لَيسَ هَذا الزَمن مِقياسٌ للوَفاءِ لأنَ الكِلابِ أخذَت كُلَ

إكسِيرِ الوَفَاءِ .. إنهُ زَمنٌ لِكُلِ الحَقائِبِ المَحشوة بِالحِقدِ و حَتى لأعزِّ الاشَخَاصِ الذِينَ كَانوا سَبباً لِوجودِكَ ..

كَانَ رَجُلاً غَنِياً ، يَملكُ مَعملاً للعُطورِ الشَرقِية في الوِلاياتِ المُتَحدة الأمرِيكِية ، و كَانَ يُدِيرُ المَعمل ابنَ صَدِيقهِ الصَادِقِ الأمِين ..

أعرِفُ أولادَهُ قَبلَ عِشرِينَ سَنة ، لا أعلم إنَ كَانوا أحَياء إلى هَذِهِ اللحَظَة ، و لَكِني أعلم أنهُم أمَواتٍ مُذ غَادرُوا دِمشق و تَركُوا وَالِدَيهم ..

هَكَذا و من غَيرِ أيةِ تَردُدٍ تَركوا كَومةَ الذَاكِرة خَلف ظهورهم ، و رَحلوا ، خَلعوا ابتسِامَاتٍ بَالية ، كَانت سِرهُم ، و اليَوم تَعَاسَتهم ، أبوان في مُكتَمَلِ المَوتِ بِحَاجَة إلى حَنَانِ أبنَاءٍ يَعرِفونَ الوَفاء ..

أينَ هُم الآنَ !؟ ..

أخَذَ أبو فِراس على نَفسِهِ عَهداً على أنَ يُعزَ أبنَاءه في كُلِ تَفاصِيل حَياتِهم ، لا يُرِيد لأبنَائه مُستَقبلاً فَقيراً كَمَاضِيهِ اليَتِيم ..

تَخَيل أن يَأتِي طِفلاً من جُرحِ المَياتِم الدِمشقِية ، و يَعِيشَ في كَنفِ عَائِلة لَيسَ بينهُم و بينهُ سِوى صِلةِ الرَحمة ..

الرَحمة التي جَبلهَا اللهُ في قُلوبِ بَعضِ البَشَر ، أتَتَ بِهِ عَائِلة من المَيتم لِعدَةِ أسَبابٍ ، السَبَب الأول أنَ الرَجُل الذِي تَبنَاهُ كَان عَقِيماً ، و السَبَبِ الثَانِي كَان يُرِيدُ من اللهِ أجراً ، و السَببِ الثَالث كَانَ الرَجُل يَخافُ على ثَروتِهِ التي لم يُحصِهَا أحَد إلا بَعد مَوتِهِ ، أن تَذهبَ هَدرًا بينَ الجمعَياتِ الخَيرية و غَيرِ الخَيرية ..

عَاش أبو فِراس مع هَذهِ العَائِلة الدِمشقِية من الدَهرِ صَمتًا في شُحٍ من كُلِ شَيء ، و بُخلٍ لا أحد يَتصَوّرهُ ، على طَعَامٍ وَاحِدٍ كَرهُهُ ، و كَرِهَ من اختَرعَهُ ..

المجدَرة ..

طَعَام الفُقَراء ، و مَا ألذَّهُ من طَعام ! ، و مَا أشهَاهُ من طَبق ، و كُلمَا مَرَّ خَيال أُمِّي من هُنَا ، مَرّت تِلكَ الرَائِحة بِأطباقِهَا المُتَواضِعة ..

إلتَهم اليَتِيم مَعَ الجُوعِ صَبراً ، و فُطِمَ على الشُحِ و البُخلِ و الصَمتِ الذِي قَاساهُ من المُتَبنَى ..

مَاتَ العَاقِرُ في عُمرٍ يُنَاهِزُ الثَمانِينَ عَاماً ، و ولدَ الطِفلُ في عُمرِ الخَمسَةِ عَشَرَ عَاماً في بِدَاياتِ البُلوغِ لِينعمَ بِثروةٍ يَصعُبُ على العَينِ عَدُ أصفَارهَا ..

كَانت زَوجةِ العَاقِر رَحِيمة حَدَّ أنَ أحبّت الطِفل حُبًا جَمًا ، و لَوْ لاهَا مَا عَاشَ الطَفِلُ إلا من بَعدِ بُرهَةٍ من رَحمة أُنثَى على شَابِهَةِ أُمٍ ..

عَاشَ الطِفلُ مَعَهاَ ، و تَبدّلَ الحَالُ إلى الأفضَل ، غُيرَت الأطباق ، و بُدِّلَ الأثاث ، و لَبِسَ الطِفلُ وَجهَهُ الجَدِيد .. كَانَ مُحِباً للعِطرِ ، و أحبُ عطرٍ على قَلبِهِ كَانَ شَمِيمِ اليَاسَمِين ..

إرتَادَ العَطَارِين لاكتِسَابِ المِهنة و المَهَارة ، و تَعلّم و قَاسى مَا قَاسَى من عَجرَفةِ التُجَارِ ، و لَكن إنَ الله إذا أحبَّ عَبدًا إبتَلاهُ في البِدَاية ثُمَّ رَفعَهُ ..

و مَا أجملهَا من رِفَعة ، و مَا أنقاهُ من عَمَلٍ ..

و رُغمَ صِغَرِ سِنهِ كَانَ فِيهِ من الحِكمة و الحِنكَة مَا يَجعلُكَ تُكَلم رَجُلاً عَجنتْهُ الأيّام ، و لَكن اليُتم جَعل مِنهُ فَتىً صُلباً..

قَطَعَ سِنِ العَشِرين ، و في جُعبتِهِ سِحر العُطرِ ، و مهَارَةِ العَطارِين ، صَبرَ .. فنالَ .. فَأتقنَ .. و أبَدعَ .. فَسُبحَانَ الخَالقِ الذِي رَمَّم كَسرَ المَجروحِين ..

مَاتَت زَوجةَ الرَجُلِ العَجوز بَينَ يَدِيهِ ، فَكَانَ بارًا لَهَا ، و مُحبًا لِقلبِهِ و قَلبهَا ، مَاتَت و هِيَ تَبتَسم بأن رزقهَا اللهُ ابناً كَأنهُ من صَلبِهَا ، و دَفنَهَا بَعيداً عن زوجها حتى لا تَتَألم في مَوتِهَا كَمَا تَألمت في حَياتِهَا و هِيَ بِقرُبهِ و على ذِمّتِهِ..

كَانَ أبو فِراس في مَرحَلةِ الفِتوة يَملكُ منَ المَالِ ، مَا يَطمعُ بهِ كُل لُعَابِ النِسَاءِ ، و لَكن تِلكَ الحِكمة و الحِنكة يَرزُقهَا اللهُ لمن يَشَاءُ من عِبَاده ..

و حَتى لا يَنسَى فَضلَهُما ، حَملَ بيُتمهِ إلى المَيتَم الذِي كَانَ فِيه ، و أخذَ على نَفسِهِ عَهداً أن يُرمِّمَهُ و يُنفِقُ عَلِيهِ مَا دَامَ حَياً ، في مِيزانِ حَسنَاتِ من تَبنَاهُ في طُفولِتهِ ..

إشتَرى أبو فِراس في سُوقِ القلبقجِية مَتجرًا مُطلّا على الزُقاق الذِي يَفِضُ بِالمُتسوّقِيين ، و جَلبَ لهُ المتجَر أضعافًا مُضَاعَفة منَ المَال الذِي ذَهبَ في سَبيلِ الأيتَامِ ، و رَدَ اللهُ لهُ قوة مَا بَعدهَا قُوة ..

حَتى سَقط قَلبهُ في عَينَي فَتَاة أتَت تَطلبُ من العِطرِ أجملهُ..

اليَاسَمين .. دَلِيلُ العَاشِقين ..

طَلبهَا بِقلبهِ لا بِمَالهِ ، فأنجَبت لهُ نِتَاج حُبٍ من بَعدِ مَخَاضٍ عَسِير .. فِتِية بُعمرِ اليَاسَمِين ..

أحَبَ لهُم عِزاً مَا بَعدهُ عِز ..

حَتى وَصَل صَدى بِرّهم لَهُ مَا يَجعلُ المرءُ يتَخِذهُم أسوةً في البِرِ ، و بَينَ عَشِية و ضُحَاهَا أرسَلهُم إلى الغَربِ ، إلى

عَاصِمَةِ العُطورِ بارِيس ، و لَكن العُطورِ الغَربِية كَانت تَسقِي القُلوب بِمَطرِ العُقوق ..

نَسوا إن كَانَ لهُم أبـًا ، حَلُمَ أن يَكونوا أفضَلَ منهُ بِالبِر ، نَسوا ذَاكَ الشَقاء و اليُتم الذِي عَاشهُ من بِدَاياتِ العُمرِ جُوعًا ، نسوا كَيف كَان و أينَ سَاقتهُ الحَياة ..

سَافَر إلِيهم ليراهُم ، و يَرى بماذا قَصَر مَعهُم ، وَصَلَ المَطَار فلم يَجِد أحداً منُهم ، سَارَ بِانكِسارهِ إلى عَنَاوِين مَنَازِلهِم ، طَرق ابوابهم و لكن :

يا حَيف !! ..

كُلُ غَصّاتِ وَجعَهِ قَالت في آنٍ وَاحد :

إلى دِمشق .. إلى دمشق .. أعِيدونِي !! ..

أعِيدونِي ..

إلى مُهَجة الرُوحِ ..

إنَ سَعَادَتِي مُعَلقة على مَشجَبِ دِمشق ..

تَقدَمَ بِي الشَوقُ شَوطاً منَ السِنِ ، و بَقِيت دمشق فَتاة كُلِ لَحنٍ ، و رُوحِ كُلِ مَغنى ، و عِطرِ كُلِ وَتَر ..

كُلمَا شَدَّ الإغتراب عَليكَ أوتَارَ وحدَتكَ ، سَيسمعُ شَجنكَ ما لم يَعرف الشَجن ، هُوَ وَترٌ وَاحِدٍ كَادَ يُسقطُني على نَبضَاتِ قَلبي ، وَترُ حَي الشَاغُورِ الدمشقِي ..

بَينَ أسرارِ بُيوتِهِ تَطوي أحد القَابلاتِ الدِمشقِياتِ بَقايا أحلامٍ و مَا تَبقَى من ألمٍ ، إنَ الألم الذِي ذَاقتهُ ، عَرَفهُ القَاصِي و الدَانِي ..

أُم مَروان الدَلال ..

اسمٌ من أسمَاءِ دِمشق ، و أحَدِ مَعَالمِهَا ، و لو لم تَقتنِي دِمشق امرأة كَأُمِ مَروان ، وكلما ذُكرتَ الشاَغور ، طَارت الأفكَارُ لامرأة عَجوزٍ كَانت سَبَباً في وجودِي ..

حَدَّثَتنِي أُمّي ذَاتَ جَلسَةٍ ..

بِأنَ الشَاغُورِ الدمشقِي لم يَحمل اسماً أطهَر من اسمِ تِلكَ المَرأة ، أخذَتني الحَمِية لرُؤيتهَا ، رُحتُ أُراوِدُ أُمِي لِتذهَب مَعِي لِزيارةِ تِلكَ المَرأة ..

و طَبعاً لم تَتَردد أبداً ..

كَانَ الزَمَانُ أجمل ، و خَالٍ منَ القُيودِ ، و فَارغٍ منَ التَصَنُعِ ، و أجمل مَا فِيهِ مَلامِحَ التَواضُعِ التي تَسودَ كُلِ الوَجوهِ الدِمشقِية ..

كَانت الناس تُؤمن بِالحُب و المَودة ، و مَع إختِلافِ دِينَا و وأعراقنا و تَوجوهَاتنَا الفِكرية و العَقدية ، إلا إنَ دمشقَ الحُبِ كَانت تُوحِدُنَا ..

كُنَا عَائِلة وَاحَدة لأنَ الأُم يُطلق عَلِيهَا شَامُ الياسَمِين ، هُوَ الصَحنُ ذَاتِهِ الذي كُنَا نَأكُلَ منِهُ رَاحةَ البَالِ ، هُوَ ذاته كَذلَكَ كنا نَأكُلَ منِهُ صَبراً مَا بَعدهُ صَبر ..

لا ذَنبَ لِدمشَقَ في تَقلُبِ حَالتَنِا النَفسِية ، لأنَ العِلة فِينَا ، و رُغمَ كُلَ التَداعِياتِ و الهَجمَاتِ السِياسِية و الدِكتَاتُورِية التي يَشُنَهَا طُغَاتِ الوَطنَ على الوَطن ، فَلقد كُنَا :

نَبتَسِم ..

نَعَم ابتسِم أنتَ في دِمشق ..

نَرتَدِي ابتِسَامَتنَا على وجُوهِنَا كمَا كُنَا نَرتَدِي ثِيابنَا الدَاخِلِية ، هَكَذَا و مِن غَيرِ أيةِ مُقدِّمَات ، أنتَ مَجبور على الإبتِسَامة رُغماً عن جَزَعِكَ ..

ابتَسِم يا فَوضَوي المِزَاج ..

أنتَ في دِمشق ..

كَيفَ لَكَ أن تَخرُجَ من مَنزِلكَ ، و لَكَ أُمٌ هيَ كُلُكَ و أغْلى مَا عِندِكَ ، تَستَقبِلُكَ بِابتِسَامَتهَا و قَهوتِهَا و خُبزِ يَدِهَا ، و تُدشِنُ يَومكَ بِدَعواتٍ لِتَقِيكَ شَرَ سَاعاتِكَ القَادِمة ، هِيَ الدَعواتِ وَحدِهَا مَن كَانت حِصنِنَا الحَصِين ، و من فَمِهَا وَحدهَا من تَكونُ دعواتها بَينَ الرَجاء و الخَوفِ تُنقِذُكَ من شَرِ نَوازِلِ القَضاءِ و القَدر ..

أتمنَّى أن أعودَ إلى حُضنِهَا ، حَتّى و لو غَطَاهُ التُراب ، يااااااه .. مَا أطهَرهُ من تُراب ..

تَخَيّل بِأن تَرى :

دمشق تُطوى تَحتَ تُراب دِمشق ..

هَذا القَلب غَارقٌ بِالشِركِ .. لأنهُ سَقطَ من رَحمِ دمشَقَ حُبًا ، كَيفَ لِقلبٍ أنَجبتهُ دمشق ألّا يَتَسَعُ لِهذا الكَون .. ! ..

في مَسَاءِ اليَومِ الثَانِي بَعد أن وَعَدتنِي وَالدِتِي أن تَأخُذنِي إلى أُمِ مَروان الدَلال ، عَقَدت أُمِي شَوقهَا لتَلكَ المَرأة في قَلبِهَا ..

سِرنَا مَعًا إلى حَي الشَاغُورِ قاصِدِينَ مَنزِلِ أُمِ مَروَان ، قُلتُ لأُمِي حَدِثِينِي عن أُم مَروان !؟ ..

سَحَابة صَمتٍ غَطت شَفتا أُمِي ، و غَيمة هَمٍ بَعثَرت صَمتهَا ، أمُي مَاذا بِكِ !؟ ..

ـ لا شَيءٍ .. كُلِ وَجع هَذا الكَونِ في كَفة ، و وَجعِ أُمِ مَروانِ في كَفة ، أعانهَا الرَبُ على مُصَابهَا .. !! ..

ـ مُصَابُهَا !! .. مَا الذِي حَدثَ لَها ؟؟ ..

ـ يا أُمِي قصَة طَوِيلة ..

تَقولُ الأسطورة . ها ها ها ..

هَل أصبحَ الوَجعُ أسطورة ! ..

حَسنَا تَقول : أنَ أُم مَروان تَزوَّجت من ابنِ عَمِهَا الذِي كَانَ جَزّارًا مَشَهورًا في شَارِعِ البَدوي في حَيِ الشَاغُور ، أحبّت أُم مَروان رُجولة زَوجِهَا ، و كَانت المَرأة حَلِيمة و صَبورة جِدًا ، طَبعًا اسم على مُسَمّى لأن اسمهَا حَلِيمة أيضًا ..

كَانت جَمِيلة قَد تَسَابق عَليهَا الرِجَال ، و لَكن كَانَ وَالدهَا يَقول دَائِماً :

ابن عَمهَا أولى بِهَا ، و الأقربُونَ أولى بِالمَعروف ..

نَعم بِالمَعروف لَيسَ بِالإجبار ، و كَيفَ لو كَان الطَرفِ الأوّل ألا و هِي الأُنثى التي تُسَاقُ إلى بَيتِ الزَوجِية في وَطنِنَا العَرِبي رَغم أنفهِا و أنفِ مَن خَلفهَا ..

و لكن انسَجمت حَلِيمة بِقَدَرِهَا ، و تَقبّلت مِزَاجه الرُجولِي ، و وَضعت فَوقَ الجُرحِ مِلحًا ، من بابِ بِرّوا آباءكُم ، تَبرُكُم أبنَاؤكُم ..

أي حَتى لو كَان على حِسَابِ مُستَقبَلكَ و احتِفاظِكَ بِخُصوصِياتِكَ ، فَعَليكَ أن تَعرف بِأَنكَ أنتَ مَكشَوف في بَيتٍ دمشقي لا يُحفَظُ لهُ سِرًا ..

زُفّت المَخلوقة إلى بَيتِ زَوجِهَا ، و حَبسِهَا الذِي لا تُطِيقَهُ أي أُنثَى ، لأنهُم يَقولونَ لكَ بِأنَ كُل أُنثَى مَصَيرهَا إلى بَيتِ الزَوجِية .. و سَارت الأيام ، و لكن لم تُنجِب لَهُ طِفلاً..

خَمسَ سَنواتٍ بَينَ طَبِيبٍ و شَيخٍ و وَلِيٍ و قَدِيس ، تَحملُ حَلِيمة أُمنِيتهِا أن يَرزُقهَا الرَبُ طِفلاً ، و بَعد كُلِ ظَلامٍ نُور.. حَملت بِطفلٍ في العَامِ السَادس من زَواجِهَا و أنجَبت مَروان ، و العَام الذِي بَعده أنجَبت لهُ نَجيب ، و الذِي بَعده أنجبت لهُ مصطَفى ..

و كَبُرَ الأطفَالُ في كَنفِ أبِيهم و تَعلموا منهُ مِهنَةَ الجِزِارة ، حَتى أصَبحَ أصَغَرُهم سِنهُ ثَمَانِيةِ عَشَرة سَنة ..

في مَوسِمِ الحَجِ أحَبَ أبو مَروان أن يَحُجَ بَيت اللهِ الحَرام ، و كَانت السَعادة بأن خَرج لَهُ أرَبعة بِطَاقَاتٍ للحَجِ ، رَفَضَت أُم مَروان أن تَذهَب مَعهُم لأنهَا أحبت أن يَحج

الأوْلاد بَيت الله الحَرام ، و مِهنَتُهم كَانت تستَلزمُ أن يَذهَبوا إلى الحَجِ ..

ذَهبوا .. و لم يَعُودوا منذُ ثَلاثِينَ سَنة ..

دَهستُهم سيّارة مُحَمَلة بِالبِضَاعة في الطَرِيق بَين مَكة و المَدِينة و لم يَسلم أحدًا مِنهُم ..

صَمتت أُمّي عند هَذهِ اللحَظة و أنَا أتَألمُ لِوجَعِ تِلكَ المَخلوقة الطَيبة ..

و لكِن أعِيدونِي ..

أعِيدونِي ..

أعِيدوا لِي مَا مَضَى من أَيامٍ قَد مَضَت ..

هَل تَسَمعُ أرصِفَة المُدن العَتِيقَة أنَينَ الرَاحِلِينَ ..

نَحنُ هُنَا و لا زِلنَا على قَيدِ التَعَب ..

فمُنذُ أن طَوى ظِلُنَا خَطواتِ إدبارِنَا إلى المَنَافِي ، و نَحنُ نَطوي الدَمعَ تِلو الدَمع على كُلِ لَحظَةِ فِراق ..

قَالوا : بِأنَ الغُربة تُعلِمُكَ الحَياة ..

فَقط دِمشق من تُعلمُكَ الحَياة و المَمَاتَ أيضًا ، فَنحنُ هُنَا و لا زِلنَا أحَياء لأن عشب الذاكرة بلغ أسوار النسيان...

في تَشَخِيصِ ذَاكِرتِكَ يَقولُ لَك أحدِ مُتَتَبِعِيكَ ..

مَاذا تَتَعَاطَى ! ..

سَتُخبِرهُ بِأنَكَ تَلتَهِم المَاضِي بِشَرهٍ ..

تَوقّف ..

نَعم تَوقَف عَن مَضغِ مَاضِيكَ ..

هَذَا مَا كُنتُ أرنُوا إلِيهِ ، هَذَا مَا كُنتُ أُرِيد أن اعتَادَ عَلِيهِ ، هَذا مَا كُنتُ أُحَاوِلُ أن أُقنِعَ ذَاتِي بِهِ ..

كَيف يَنسَى دِمشقِيٌ زُمرة دَمهُ مُوجب عِشق !!

كَيف لِي أن أنسَى أبانَا يُوحنَا شَلهُوب !؟ ..

أبونَا يُوحنَا رَجلٌ خُلِقَ منَ العِشق ، مَا جَالسَتهُ يَومًا إلا و حَدَّثَنِي عَن الحُبّ ، كُنتُ دَائِمًا أتسَاءَل !! ..

كَيفَ لِرجُلٍ قَطَع من السِنِ سَبعِينَ سَنة و لا زَال لِسَانهُ يَقطرُ حُبًا ..

هَل كَان هَذا النُورُ عَاشِقًا يا تُرى !؟ ..

هَذا مَا كُنتُ أهمّ بِالسُؤالِ عَنه وَ عَن الأحوالِ التي يَعيشُ بِهَا هَذا الرَجُل ، لَهُ من القَدَاسَة و التَواضُعِ و الزُهدِ مَا يَضعُ العَقلَ بِالكَفِ ..

دائمًا كُنتُ أنَحَنِي لأُقَبلَ يَدهُ ، و لَكن مَا قَبّلَ يَدهُ أحدٌ قَط ، فَلقد كَانَ يَسحبُهَا بِخفِة رُغمَ كِبَرِ سِنهِ ، مُشَتاق لَك يا أبونَا.. وأكثر ما كنت أتَتَطفَل بِهِ على وَالدَتِي هو الأسئِلة التي لا تَتَوقَّف عَن أشَخَاصٍ كُنتُ أرَى بِهِم دِمشق ..

حَدِّثِينِي عَن أبونَا يُوحنَا ، عَن بِئرِ صَلاحِهِ ، و أرقامِ إبتِسامَتِهِ !؟ ..

ـ يا أُمِي أبونَا يُوحنَا بَركَة دِمشق ..

من أينَ ترِيد أن أبدأ لكَ ؟ ..

كُل البدَاياتِ تَهطلُ من غُيومِ دِمشق ، لأنهَا عَاصِمَةِ الفَرح و البَهْجة ، يُرسِل الرَبّ الأنَبياءِ و الرُسل و الصَالحِينَ و القدِيسِين و أهلِ اللهِ و الرُهبانِ إلى المُدنِ المَنكُوبة بِالمعَاصِي و الخَطِيئَة ، و لَكن الرَب أرسَل لَنَا اليَاسَمِينَ هَادِيًا و مُبَشِرًا و نَذِيرًا و دَاعيًا إلى اللهِ و سِراجًا مُنِيرًا ..

فَالتَشَبُه بِاليَاسَمِين هو ذَاكَ الهُدى الذِي لا يسبقُهُ هُدى ، تَقولُ : في إحدى لَيالِي الشَام إن صَافِيت إلياس زَوجَة شَاهِين شلهُوب كَانت في مَخَاضٍ عَسير في أحدِ البيوتِ الدمشَقِية في باب تُومَا ..

ذَاكَ الزَمَان الذِي نُطلقُ عَليهِ الزَمنِ الجَمِيل ..

و كَانَ صَوتُ المِسكِينَة قَد وصَلَ إلى أُذُنِ كل بَيت دِمشقي في ذَاكَ الحَي ، و المِسكِينة قَد أنجَبت قَبل هَذا الحَمل تِسعة من الأنِاث ..

و لَكِن زَوجهَا يُحبُهَا حُبًا جَمًا ، إلا أنهَا تُرِيد أن تُعَوضَهُ بولَدٍ يَحملُ اسمَهُ ، كَانَ يُصِرُّ عَليهَا بِأنهُ رَاضٍ بِقسمَةِ الرَبِّ ، و لم يَعتَرض ، و لكن صافِيت أتعَبهَا ذَاكَ التَفكير و هَي تُحبّ أن يَكونَ لهَا بَينَ هَذهِ القَبِيلة من النِسَاء رَجلٌ يَحمِى الحِمى بَعد مَوتِهَا ..

كَانت صَافِيت جَمِيلة حَدّ الإغراء ..

و أجمَل مِمَا تَتَصوّر ، كَانت في مَنزِلِ زَوجِهَا مَلكة لا يُردَّ لَهَا أمرٌ و لا يُرفض لهَا طَلب ، و صَبرت عَليهِ على الحلوة و المُرّة كَما يَقولُ الدِمشقِيون حَتى اشتَدَّ عُودهُ ، و أصَبحَ يُضَاهِي تُجَّارَ القُمَاشِ بِشَجَاعَتِهِ و لِسَانِهِ الطَيب الذِي يُخرجَ الأفعَى من جُحرِهَا ..

أمرت صَافِيت زَوجهَا عِندمَا فَتحَ لهُ أوّل مَتجر للأقمشَة أن يَكتُبَ فَوقَ مَتجَرِهِ :

مَتجَر أبو يُوحنَا شلهوب و أولادِهِ ..

كَانت المسكِينة تَذَهب إلى المَسجد الأموي بَينَ كُلِ فَينة و فَينة ، لِتَزورَ مَقامَ النَبي : يُوحنَا المَعمَدَان ، المَعروف

بِالنبي يَحَيى ، و تَتَمسحَ بالمَقام ، و تَبكي و تَبكي و تَبكِي حَتى تَبتَلّ ثِيابُهَا بِالدُموعِ ، عَسَى أن يَرزُقهَا الرَبُ طِفلاً ..

غَرِقَ البَيتُ بِالإناث ، و لم تَيأس المِسكِينة من رَحمةِ الرب ، كَانت تُرِيد أن تُنجِبَ طِفلاً و تُسَمِيهِ يُوحنَا عِشقًا و حُبًا للنَبي يُوحنَا ..

تَقول صَافِيت ، بِأنهَا رَأت النبي يُوحنَا يَحملُ لَهَا طِفلاً و يَمشِي بِهِ إلى مَعلولا في رِيفِ دمشق ، و مَا إن وَصل إلى ديرِ مَارتِقلا ، حَتى عَمدهُ و بَخَرهُ ، و كُل خَادِمَاتِ الدَير يَقُلنَ : لمن هَذا الطِفل !؟ ، و مَا هَذا النُور الذِي يَخرُجُ منِهُ ، فَقال : إنهُ يُوحنَا العِشق ، ابن صَافِيت إلياس..

إذا رَأيتُموهَا أخبِروهَا بأنَ ابنَكِ هَذا سَيكونَ لهُ شَأنًا عَظِيمًا بينَ كُلِ من عَرفَ العِشق و الحُبّ ..

تَقول صَافِيت : مَا إن استيقَظت حَتى كَانَ عَرقِي قَد بَلَلَ وِسَادَتِي ، إسَتَيقَظتُ فَرِحة باكِية مُستَبشِرة بِمَا قَد وُعدتُ بِهِ ، و كَانَت هَذهِ البشَارة قَبلَ الوِلادَة بثَلاثَة أشهُرٍ ..

كُنتُ أقولُ للجَمِيع بِأنَنَي حَاملٌ بِيوحنَا ، و كَانَ كل من حَولِي قَد سَئمَ من أحلامِي و أوهَامِي ، لأنَنَي في نَظَرِ الجَمِيع بِأنَنَي أُم البَنَات ..

جَاءَ المَخَاض ، و أنَا أصرخُ يا عَذراء .. يا أُم النُور دَخِيلُكِ، يا يُوحنَا أنَجدنِي .. وَجعٌ مَا بَعدهُ و لا قَبلهُ وَجع ، أحضَرَ زَوجهَا أرَبعَ قَابِلاتٍ بِسَبَبِ النَزِيفِ الذِي حَدثَ معَهَا في لَيلَةِ النِفاس ، لم يَتَحملن القَابِلاتِ وَجع تِلكَ المَرأة ، فَأمرنَ زَوجهَا أن يَنقُلهَا إلى الخَستَخانة المَعرُوفة بِالمُستَشفى الحُكومِي .. خَرجَ الرَجُل مُسرِعًا لِإحضَارِ عَربة تَنقُل هَذهِ المسكِينة ..

في هَذهِ اللحَظة خَرجَ الطِفلُ في مَنُتَصَفَ اللِيلِ ، هي تَبكِي و تَقول : بَشرُونِي هَل أنَجبتُ يُوحنَا العِشق !؟ ..

نَعم لَقد جَاء طِفلٌ كَفلقةِ القَمر ، و مَا إن سَمِعَت المِسكينَة بِأنهَا أنجبت طِفلاً حَتى فَارَقت الحَياة ، نَعم فَارَقت الحَياة و لم تَرهُ أبدًا ..

إنهُ يُوحنَا العِشق ، الذِي تَربَّى بَين الإناثِ التِسعة ، و نَذَرَ من نَفسِهِ أن يَكونَ خَادِمًا للرَبِ مُذ أن سَمعَ بَقصَّةِ أُمهِ المِسكِينة التي لم يَرهَا و لم تَرهُ ..

طُوبى لمن إختَارهُ الرَب ..

أعِيدونِي إلى أبونَا يُوحنَا العِشق ..

أعِيدونِي ..

أعِيدونِي ..

إلى مَقاهِيهَا ..

لم أعتَد أنَ أحتَسِي القَهوة إلا في ضِيافَتِهَا ..

أُنثَوِية اللذَة هِي ، بِكُلِ حِجَارَتِهَا ، و أرِيجِ قَهوتِهَا ، و تَدثُرِهَا بِاليَاسَمِين، تَمَتَعِي يَا شَهِيةِ الصَباحَاتِ يِكِفي أنْ سَمّاكِ التَاريخُ : دِمشق..

يا جِدَائِلَ الأملِ المُنسَدِلِ من السَمَاءِ ..

دِمشقَ يا أُمَ اليَتَامى ، يا رَبةَ الأيامَى ، يا مَسكَنَ الصَالحِين و القِدِيسِين .. موجوعٍ أنَا يا شَام ..

أعِيدونِي إلى مَقهَى النوفَرة ..

عِندمَا أُحدِّثُكَ عن مَقهَى النُوفَرة أي أُحدْثكَ عن تَارِيخ ، و لَيسَ أي تَارِيخ ، إنهُا أيقونة للضِيافَة لِكُلِ من زَار دِمشقَ و حَجَ إلى مَزاراتِهَا ..

لِكُلِ وَطن كَعَبة ، و كَعبة وَطَنِنَا دِمشق ، لِكُلِ عَاصِمَة سُقِيا ، و سُقِيا دِمشق بَردَى ، لِكُلِ مَدِينة مَوقِف ، و مَوقِف دِمشق مقهَى النُوفَرة ..

أيقونَة تَضمُ تَحتَ تُرَابِهَا نُجومٌ كَانوا و لا زَالوا نَوراً لِتُرابِ الشَامِ ، تَخَيل بِأنَ النَبِي مُحَمد قَال :

إذا فَسَد أهل الشَام فَلا خَيرَ فِيكُم ..

كَانَ كَلامهُ مُوجّها لأصحَابِهِ الذِين حَاربوا معَهُ و جَاهَدوا في سَبِيل نَشرِ دَعوتِهِ و رَفعِ رَايةِ الأخلاقِ و القِيم ، و يا لَيتَ النَاس يَعلمونَ خُلق النِبي مُحَمّد ..(صَلّى الله عَليه وسَلم)

كُنَا في دِمشق عَائِلة وَاحَدة نَقفُ على تُرابِهَا شامِخين ، و نَلتَحِف سَمَاءهَا بِكرامة ..

كَرامة ..

كَلمَة تَعلّمتُهَا من العَم أبو مِصطَفى بَدرِخَان ..

رَجُل فيهِ من طَهَارةِ قَلب مَا يَجعلُكَ تَقول :

أيُعَقل أن نَجِدَ طُهراً في عَالمٍ مُلوّث بِالنِجَاسَة ..

و لَكِن كَمَا كَانت تَقول لِي أُمي :

يا أمِي إذا خَليتْ .. بَليتْ..

أي أنَ هُنَاكَ طُهرٍ لا زَال عَلى قَيدِ الحَياة ، فإذا فَني هَذا الطُهر فِإنَ الحَياة بِلا قِيمة ..

أَبو مُصطَفَى ..

يَنَحِدرُ من سُلالَة دِمشقِية فَقِيرة المَال كَرِيمَة النَفس ..

مَا دَخل أحد بَيت أبو مُصطَفى إلا و أكرمَهُ و أحسَن ضِيافَتهُ ، لأنَ الكَرم من شِيم الكِرام ..

وَرِثَ عن وَالدِهِ مِهَنة وَاحِدة ، و خَمسَ أخواتٍ ، و ثَلاثة إخوة يَصغُرونَهُ يُتمًا ، يُتمٌ مَا بَعدهُ يُتم ، في عُمرٍ كَان يَنبغِي أن يَأخُذَ شَهَادَةَ التَوجِيهِ ، و يُكمِلَ دِرَاسَتهُ ، و لَكن سَقط وَالدِهُ في مَقهَى النُوفَرة و هُوَ قائِم على عَملهِ ..

آخِر مَا وَعد بِهِ بنَاته قَبل ذَهَابهِ إلى المَقهَى أن يُحضِر لَهُن ثِياب العَيد الكَبِير ، و وَعد زوَجتهُ أن يَجلب لهَا حَلوياتِ العِيد ، و أمَا الابنَاء فَهُم رَاضون بِمَا قَسمَ اللهُ لهُم من فَقرٍ ، لأنَ الحَالَ منَ المُحَال ..

كَانَ والد أبو مصطَفى بينهُ و بَين المَوتِ مَوعِدًا ، لِيسقُط على عَتَبةِ مَقَهى النُوفَرة شَهِيدًا في سَبيلِ لُقمَةِ الرِزقِ المُغَمسَة بِالذُلِ ..

شَيعَ أهلِ دمشق الرَجُل الطَيب في صَباحِ يَومِ عِيدِ الأضحَى المُبارك بَعدَ صَلاةِ العِيد ، و وَقفَ الفَتى أمَامَ شَلالِ المُعَزِينَ و عِينهُ على التُراب الذِي يَنهَالُ على أبيهِ..

ألف لَيرة سُورِية هي الثروة التي احتواها جَيبِ أبِيهِ الذِي غَادَرهُم ..

أُمٌ ثَكَلى ، و بنَاتٌ بِعُمرِ اليَاسَمِينَ ، و أطفالٌ لم يَبلغُوا طَعمَ الأبُوة ..

أبتَاهُ أينَ أنت !! ..

مِترٌ بِمترين .. هَذا قَدرٌ كَافٍ لإرَاحَةِ تَعب من جَاهدَ في سَبِيلِ رِزقهِ ، و كَانَ قَائِمًا على إطعَامِ أبنَائِهِ ، أراحَ الأبُ جَسَدهُ بَعدَ خِدمة ثَلاثِينَ سَنة في مَقهَى النُوفَرة ..

و لَكن الفَتَى بَدأت رِحلَتَهُ ، حَيثُ لَجأَ الفَتَى إلى صَاحِبِ المَقَهى يَتوَسل إلِيهِ أن يحلَ في مَكَانِ أبيهِ ، و يَأخُذَ مَكَانهُ لأنهُ لم يَعُد في البَيت لُقمة خُبزٍ ..

كَانت الأُم تَبحث عنِ العَمل ، و لكِنَ الفتَى كَانَ فَطِنًا و ذَكِيًا و بارًا حَدَ المَوتِ بِوالدِيهِ ..

أبَى أبو مُصطَفى في ذَاكَ الزَمَان أن تَعملَ وَالدِتَهُ ، فَنَزَل مَكَانَ وَالدِهِ يَعمل لَيلاً نَهَارًا لِسَدِ جُوعَ إخوانِهِ ، و سَارت الأيَامُ بِهِ حَتى بَلغَ أشُدهُ ..

تقدَم إلى أخواتِه شُبان صالحون ، يملكون الكَفاءة لِإسعادِ أخواته ، فَتزوجنَ البنَات ، و أمَا الإخوة فَأكملوا دِرَاستَهم على نَفَقةِ أبو مِصطَفى المِسكِين ..

في خِضَمِ هذهِ المَعرَكة التي قَدمَ فِيهَا مُستَقبلهُ على رَاحَةِ أُمهِ و أخواتِهِ و إخوانِهِ ، تمكنَ الرَجُل بَعد عُسرٍ من جَمعِ شَيءٍ خَفِيفٍ من المَالِ ، تزوّج به إحدى اليَتِيماتِ ..

كَانت أُمُ مصطَفى فتنةً بِجمَالِها ، إجتمَع فِيهَا كُل شَيءٍ من كمَالٍ عَدا الثَروة و المَال ، و لَكن وَجدت في أبو مُصطفَى حَياتَهَا و بَهَجتَهَا و سَعادةً مَا بعَدهَا سَعادة ..

فَلقد نَجت من لَعنةِ خَالتِهَا .. زَوجة أبيهَا الذِي فَارقَ الحَياة قَبل أن تَشبعَ من حَنَانِهِ ..

و لَكن أرسلَ الله جُنوده المُجنَدة أخرجوا هَذهِ المِسكِينة من لَعنةِ العُبودِية إلى سعةِ الحُبِ و الرَاحة .

كَانَتْ عِند كُل دُعاء تَقول: (اللهم أستَودِعك حَياتي وَ مُستقبلي فدبّر أمْري فإني لا أحْسن التّدبير) ، حتّى حان الوقْت الذي أرَاد فيه الله تحْقيق أحلامِها، كَيف لا وَ هُو الذي لا تضيع عندَه الودَائع ، فأرْسل لهَا أبا مصطفى ليكون أمّا وأبًا و وطنًا ، إن بَعض الأوْطان تأتي عَلى هيئةِ بشَر....

زُفّت يَتيمة الحَظِ إلى يَتِيم الحُبِ ، و أنجبَت لهُ مصطَفى و مَحمود و فَرِيد و نهَاد ..

رُبمَا فَارقَ أبو مُصطفى الحَياة الآن ..

و لَكن عِندمَا كُنتُ في دمشق رأيتُ كَيفَ الله عَوضَهُ مَا فَات من تَعبٍ و وَجعٍ على مَدارِ السِنِين التي فاتت ..

إنَ مَا رَزَقهُ اللهُ من أولادٍ قَد أنهُوا مَراحِلَ الدِراسَة بِعَلامَاتٍ تَامّة ، فَلقد كَانت تُوضعُ صُورهُم و اسمَاؤهم في الصَفحَاتِ الأولى فِي الجَرائِد و أسمَاءِ الشَرفِ في كُلِ نِهَايةِ عَامٍ دِراسِي لِتَميّزهِم و تَفوّقُهم ..

رَزقهُم الرَبُ ذَاكرِة صَافِية و خَالِية من التَجبُرِ و التَكبُرِ ، فَلقد كَان أبو مُصطَفى رَجُلًا مُتواضِعًا ، تُحبهُ النَاس ، و لَهُ مَقولة جَمِيلة تَعَلمهَا من الحَياة :

يا ابنِي أنَا على إستَعداد أعمل بِتنظِيفِ الأحذِية ، و لا أمُد يَدِي للنَاسِ ..

عِندمَا خَرجتُ من دمَشق كَان أصَغر وَلد من أبنَائِهِ قَد تَخرّج من كُليةِ الطِبِ البَشَري من جَامعَةِ دمشق ، و فَلقد ذاع صِيتُ أبنَائِهِ في مُعَالجَةِ البَشَرِ للحدِ الذي يَجعلهُ يَرفع رأسَهُ فَخرًا ..

خَرجتُ من دمشق و لم يَترُك أبو مَصطَفى عَمَلهُ في مَقَهى النُوفَرة ، يحَملُ صِينِيتهُ النُحَاسية ، و بِإبتِسامَتهِ يُقدَم القَهوة لِضيوف القَهوة ..

و إذا رأيتَ وَجه أبو مُصَطفى ، سَوفَ تَعتَقد بِأن هذا الوَجه لم يرَ مِن هَذهِ الحَياة ضَنكا .. ما السَبب !! .. إنهُ الرَضى ....

أعِيدونِي إلى مَقَهى النُوفَرة ..

أعِيدونِي إلى العَم أبو مِصطَفى ..

أعِيدونِي ..

أعِيدونِي ..

إلى رِحلةِ النُجومِ ..

نُجومٌ على هَيئَةِ بَشَر ..

رِحلة فيها عَمدتهُم بَردَى بِمِياهِ السَحَرِ ..

دمشق .. مَذبَح الشَرقِ ، و قِبلةَ بِلادِ الشَامِ ، و مَسعَى الرُسل ، و مَجثَم التُجَارِ ، تَرى الوَجوهَ التي تَسيرُ في أزِقَةِ دِمشق يَطوفون حَول مَتَاجِرِهَا بِمَلامِحٍ مُلونَة و لُغاتٍ شَتَى.. قَد أَتوا من كُلِ شتَاتِ الأرضِ يَتَرزَقونَ مِن بضَاعَةِ دِمشق المُتخمة بِالبَركة ..

بَركَة الشَامِ في كُلِ خَيطٍ ، فِي كُلِ حَبَة قَمحٍ ، في كُلِ قَطرةِ قَهوةٍ ، في كُلِ رَشفَة مَاءٍ ، في كُلِ سُقِيا سَبِيلٍ ....

سَمفونِية مُعتَقة مَصبوغَة بِالمَاضِي ، لم يأتِ عَليهَا قَوم إلا و زَينُوهَا بِزَخَارِفِ حَضَارتِهِم ، مَن تُرِيد من الأُمَمِ المَاضِية حَتى تَعرف مَا صَنعوا بِعَروسِهم الدِمشقِية ..

قَالوا أنَ دِمشق أقدمُ مدينة في العالم ..

و قَالوا بأنَ عُمرهَا أحد عَشَر ألف عَامٍ ، أي أقدمَ عَاصِمَة في العَالم ، فَلقد صَدق أحدُ نُسَاكَ دِمشقَ و عُبادِهَا ، حَاخَامُ الشِعرِ الكَبِير ، الأستَاذ نِزَار قَبانِي عندمَا قَال :

كَتَبَ اللهُ أن تَكوني دِمشقَاً ..

بِكِ يَبدأُ و يَنتَهِي التَكوِين ..

و لقد قَالَ أهلَ الهَوى : إذا أردَتَ أن تَعرِف مَقامَكَ فأنُظر أينَ أقامَك ..

و إذا أقامَكَ في دِمشق فَأعلم بِأنَك من أهلِ الهَوى ، و لا يَعرِف الهَوى سِوَى الدِمشقِيين و مَن سَارَ فِيهَا أو زَارَهَا أو حتّى شرب مِن مائها ..

أعِيدونِي إلى شَارِعِ البَدوي ، إلى حَي الشَاغُورِ الدِمشقِي ، إلى بَابِ صَغَير ، أحَد أبوابِ دِمشقَ العَتِيقَة ..

العائِلة الدِمشقية تُعَرفُ بِشَهامَتِهَا ..

كُانَ لِي صَدِيق .. يَقولُ عَنهُ الدِمشقِيون أبو الفُقَراء ..

من العَائِلة التي أُشتُهِرت بِكَرمِهَا و كَرامَتِهَا ، إنهَا عَائِلة البِيطَار الدمشقِي ..

إنهُ عِصامِ البِيطَار .. رَحمهُ اللهُ تَعالى ..

وُلدَ عِصَام البِيطَار و في فَمهِ مِلعقة من ذَهب كمَا يَقولون ، و لَكن لم يَبتَلع الملعقة ، و حُسنَ تَربِيتهِ لم تَجعلُهُ يأكُل بِهَا ، لأنَ الذَهب للمُتَعجرِفِينَ من القَومِ ..

و منَ المَعروفِ عِندَ الدِمشقِيين ، بِأنَ كُلِ حَفنةَ بُرٍ لم يَكُن فِيهَا شَيءٍ للهِ ، فَلا بَركة فِيهَا و لا فِي صَاحِبهَا ، و قَالَ أيَضًا الدِمشقِيون، أطَعِم لُقمة يُطعِمُكَ اللهُ لُقمَتِين ..

و مَع زِيادَةِ البَطَالة في ذلكَ الزَمَان ، و فَائِضٌ في الفَقَرِ و الحَاجَة ، إلا أنَ الرَبَ أنقَذَ الفُقَراء بِمَالِ الأغنِياءِ ، فَالسَخَاء و الخَير في كُلِ مَكَان ..

الكُلُ يُطعِم ، و الكُلِ يأكُلِ ، لأنَ لُطفَ الرَبِ هُوَ من أقَامَ هَذهِ المَدِينة بِالإنفَاقِ و بَحبُوحَةِ البَركَة ، و لَكَ في الخَيرِ و أهل الخَيرِ أسَوة حَسَنة ..

عِصَام البِيطَارِ ..

العُملَة التي لا يَعرِفُهَا أَحد ، عُملة بِوجهٍ وَاحدٍ ، بِطَبِيعة وَاحِدة ، بِجُغَرافِية وَاحِدة ، كَانَ عِصَام البِيطَار شَابٌ

عُرِفَ بِصَلاحِهِ ، و مَخَافَتِهِ من اللهِ تعَالى ..إسْألني من لا يَعرِفَهُ !! ..

قُلْ لي أيَّ بَابٍ من أبوابِ دِمشق لا يهواهُ ..

نَقّب عن أمعَاءِ الفُقَراءِ ، و اليَتَامى و الأيامَى و المُحتَاجِين عَن عِصَامِ البِيطَار ، فَكم من لُقَمةٍ نَزلت إلى بُطونِ الجِياعِ ، و كم من جسدٍ كُسِي من خَيرِ كَفِهِ ، فَلقد كَانت خَزِينَةُ وَالِدِه مَفتوحة لهُ أرَبع و عِشرِينَ سَاعة ..

يَأخُذ منهَا مَا يُرِيد ، و يَضَع بِجَيبِ من يُرِيد ..

هَل سَمَعتَ بِمَسجدِ الدرويشِية الذِي يَقعُ في شارِعِ دِمشق المُستَقِيم !؟ ..

هَل مَرَّ عَليكَ في تَارِيخِ دمشق بِأنَ هُنَاك دَراوِيش يَلتَقِطونَ أرَزاقَهُم من المَارَة لِسَدِ حَاجَتِهم ! ، إن كُنتَ تعرفَهُم ، أو تَعرِفَ المَسجد .. إسأل الجِياع الذين كَانوا فِيهَا و إنَّا لَصَادِقون ..

إسأل عن عِصامِ البِيطَار ..

يُحبُهُم و يُحبُونهُ ، أشداءٌ أمَامَ الفَقر ، شَدِيدٌ على الإنفَاقِ ، و مَا رَمَى إذا رَمى ، و لَكنَ اللهَ الذِي أطعمَ و الذِي رَمى..
رَسولُ الخُبزِ ، يأتِيهم كُلَ مَا إنبَجسَ نُورَ شَمسٍ ،حَافِيًا من كُلِ غِنَى ، لأنهُ هوَ الأغنَى عن مَا في أيدِ النَاسِ ، فَقَيرًا لمَا عِندَ الرَبِ ..
يَأتِيهِم بِخُبزِهِ ، و إبتِسَامِتِهِ ، نُورٍ بَينَ ثَنَاياهُ ، يَضُّمهُم و يطعِمهُم ، و يَستمعُ إلى هُمُومِهم ، يُبادِلهُم شَقاءَ الجُلوسِ عَلى جِدَارِ الرَبِ طَالبِينَ لُقمَة خُبزٍ تَسُدُ جُوعَ ضَعفِهِم ..
و لَهُ في بابِ شَرقِي جَلسَة خَيرٍ مَع امرأة كَانت قَابِلة قَانُونِية قَد وَلدَت أغلبَ نِسَاءِ دِمشق ، إنهَا المَرأة التي عَجنتَهَا الحَياة بِالوِحدة بَعد أن هَجرهَا أبنَاؤهَا إلى دُولِ الغَربِ و تَركُوهَا وَحِيدة للصَدى ..
آآآه يا دِمشق ..
و من خَرجَ من كَعَبةِ شَهِيتِكِ يَتيمًا ، فَلا حُضنَ وَطنٍ يَسُدَ جُوعَ حَنَانكِ يا عَاصِمَةَ الشَوقِ ..

تَركوا تِلكَ الأُم للجُدرَانِ ، تَركُوا تِلكَ المَرأة للذَاكِرة ، و لَكنها أبت أن تَخلع الذَاكِرة ، و تَتَجرّد من أصَواتِهم و سَعادَتِهم و شَقائِهم ..

قَطَعت من العُمرِ تَعبًا ، حَتى تُطعِمهَم و تَجعلَهُم قُدوة بِالتَربِية الحَسنَة ، و عِندمَا إشتَدَ عُودهم ، و قَامت قِواهُم .. أداروا ظُهُورَهم لِلظِلالِ و هناك أُمٌ كَانوا يَقولونَ لهَا :

أُم إيلي ..

أحَبَ عِصام البِيطار أُم إيلي ، أحبَ أن يُقدم لَهَا مَعروفًا لأنهَا سَبَبًا لِوجُودِ وَالديهِ ، فَهِي من وَلّدَت وَالده ، فَلقَد كَانَ بينهَا و بَينَهُ مَوعِدًا بَعد كُلَ عَصرٍ ..

يَجلُبُ لَهَا الطَعام .. و يدخل مَعهُ السُرور إلى قَلبِهَا ، و يُجَالِس وحدتهَا ، و يُطعِمُهَا ، و يَغسِل الأطباق ، و يَنشُرُ لهَا غَسِيلهَا ، و يُنَظِفُ لهَا بَيتهَا ، و يَصنعُ لهَا قَهوتهَا ، و يُسَامِرهُا بِالكَلامِ و المَحبّة و المَودّة ..

إنهَا أيقُونَاتٌ عَتِيقة فِيهَا منَ الَرحمة و المَهَابة مَا جَعلَ من دِمشَقَ كَعبة في الخَيرِ و البَركَة ..

دَائِمًا أقوَل ..

أعِيدونِي إلى عِصَام البِيطار .. أعيدونِي إلى دِمشق .

أعِيدونِي ..

إلى أولِ حَرفٍ ..

مَنقُوشٍ على رَصِيفِ الأرَبعِين ..

إلى لُغَةِ الهِجَاءِ التي لم تُلفَظ و لا تُقرأ ..

إلى مِلحِ الرواسِبِ في أحَدِ المَحَطاتِ الرَاقِدة ..

إلى آخرِ تَعوِيذَةِ قُماشٍ سَائِرة فَوقَ جَبلٍ كَان يُسَمّى دِمشق و اليَوم يُسمَى قَاسَيون ..

يا سَيدة العَواصِمِ أنَنَي في شَوقٍ إلى التَيمُمِ بَقهوةِ صَباحكِ ، أَنَني في عِشقٍ لِسَمَاعِ نبضِ شَوارعكِ ..

في كُلِ شَارعٍ لَي مَعَكِ مَوعِدًا ..

في كُلِ زُقاقٍ كَانَ لِي مَعَكِ لِقاء ..

أنَا ذَاكَ الفَتَى الذِي رَضِعَ من ضِرعِ مَحَبَتَكِ ..

أعِيدونِي ..

إلى بَابِ شَرقِي ..

إلى قَلمِ الحُرِية ، و شَهِيدَةِ الحُبِ ، أحَدِ اركَانِ اليَاسَمِين ، التي سُمِيت بِاليَاسَمِين ، الصَدِيقة الغَالِية على قَلبِي :

ياسَمِينة حَنَا ..

أُنثَى على شابِهَةِ دِمشق ، كُلِ الأُنوثَة تَليقُ بِهَا ، يا لاخضِرارِ عَينِهَا ، يا لِشَعرِهَا المُبعَثَرِ الغافي على كتفيها، يا لانسِجَامِ طَلتِهَا ، يا لِلَباقَةِ أحَادِيثهَا ، أُنثَى مُغَطَاة بِكَرِيمِ الخَجلِ ، نَصَاعٌ إنفَلقَ حَولهُ النُورِ كَشَقِ القَمر ، فَمنَ العَيبِ أن نُطَلِق عَلِيهَا قَمر ..

لأنهَا أبهَجَ منَ القَمَرِ ، و أبهَى من إكتِمَالهِ ..

عِندمَا قطَعَ السن بِهَا خَمسَ سَنواتٍ ، عَرفَت بِأنَ أمُهَا إمرَأة تُخَيطُ من القُمَاشِ لُقَمة كَرامة لِسَدِ حَاجَتِهَا عن الذي يملكه النَاس ، و أنَّ أبَاهَا إسمٌ مُؤنَث بِكُلِ لَحنٍ ، و بِكُلِ مَغنَى .. أبًا لنَا ، لِيُتمِنَا اسمهُ : دمشق ..

حَلمتْ أُمهَا بِهَا من بَعدِ مَخاضٍ عَسَير من الحُبِ ، حَيثُ تَزوّجت أُمهَا من أُستَاذٍ للغة العَربِية ، لَقد كَانَ في الأُم صَبرًا .. أشبه بِصَبرِ النَبي أيوب ..

بَعدَ الزَوَاج بِأشهُرٍ قِليلة ..

بُشِرَ الزَوج بِجنَينٍ قَادِمٍ منَ الله ، و هَدِية جَمِيلة في عَالمِ الأرحَامِ ، و نُطفَة غَيبية لَيسَت ذَكرًا بَل هيَ أُنثَى فَتَبارك اللهُ أحسَن الخَالِقِين ..

تَراكَمَ السُرورُ على وَجَهِ الزَوجِ ، و رَاحَ يَغرُسِ الشَموع في كُلِ رِمالِ الكَنَائِسِ ، و يَضَعِ القَرابِين في صَنَادِيقِ الجِمعَياتِ الخَيرِية حَتى يُقرَ اللهُ عَينهُ بِأُنثَى كَامِلة و خَالِية من الأمراضِ و العُيوبِ ..

حَلمت الأُمُ بِجَنِينها عَن حُبٍ ..

و ثِمَارُ الحُبِ أجملُ بِكَثَير من ثِمَارِ العُنفِ ..

في أحَدِ قَاعَاتِ الدِرَاسَة .. دَارَ الكَونُ حَولَ الزَوجِ ، و بَدأت الدُنيا تَدورُ و تَفتُلُ حَولهُ ، لم يَكُن يَعرف بِأنهُ على مَوعِدٍ مَعَ المَوتِ ..

جَلطة دِمَاغِية شَلت حَركةِ نَبضَاتِهِ ..

فَسَقطَ الزَوجُ في شِباكِ المَوتِ في بُرهَةِ ضَعفٍ أمَامَ قَضَاءِ الرَبِ و قَدَرهِ ، فَكَانت الفَاجِعة للزَوجة المسكَينة ، و انهَارَ

الكَونُ بِالدموعِ و الحُزنِ من بَعدِ أن سَاوى التُراب بَينهُ و بَينَ الحَياة ..

لا تُصَدِق بِأنَكَ سَتَخلّد ، لأنَ لِكُلِ شَيءٍ نِهَاية ، الحَياة و الظُلم ، و الليل ، و النَهَارِ ، و الخَير ، و السَعادة و الحزنِ ، و أنا و أنتَ ، أُبشِرُكَ بأنَنَا إلى زَوال ..

خَضَعت الأُم إلى إرادَةِ الرَبِ ..

و بَدأت تُفَكر كَيفَ سَتَعيش مَع مُضغَة لم تَكتَمِل مَلامِحُها ، تِسَعة أشهُرٍ من التَفَكِير ، و بَدأتِ الأموالِ تَفرُغ و تَقِل ، و لكن سَاعَدهَا الأهل و الأصَحاب ، و مَا إن نضجَ الحَمْلُ حَتى وَضَعت جنينها ..

بِنتٌ أبهَى من البَدرِ ..

مَاذا سَوفَ تُطلِقِي عَليهَا إسمٌ !؟ ..

ياسمينة حنَا ..

إقتِدَاء بِدمشق ، و حُبًا لِهوى الشَام ، و شَيء من الوَلاءِ لقَاسَيون ، و رَغبة في مَا أردَاهُ الزَوج من تَسمِية .

خُضوعًا لياسَمِين ، أطلقت عَليهَا صِفَة و إسم الياسَمِين ، تَخلِيدًا للذاكِرة و للذِكرى ..

أمسَكت الزَوجَة بِثَمرةِ حُبهَا جَيدًا ، و أرَادَت حَياة سَعَيدة لابنَتِها ، فَتعلّمت مُزَاوَلةَ الخِياطَة ، و أبرَمت صَفَقة عَهدٍ مَعَ القَدرَ على أن لا تَتَزوج رَجُلاً بَعدَ حُبهَا الأول ، لأنَ لا مَعنى للحَياة بَعد أن تَقَع الأُنثَى بِحُبِهَا الأول ..

على آلَةِ الخِياطَة ، أتقَنت المِهنَة ، حَتى إرتادَ بَيتُها القَاصِي و الدَانِي ، منَ التَعبِ و سَهَرِ الليالي ، أطعمت أبنتهَا خُبزاً حلالًا ، منَ البَسمَة و المَوعِظَة الحَسَنة أحسَنت الأُمُ تَربِية إبنتهَا ..

أيقونَة بِالأدبِ و الجَمَالِ و حُسنِ الخُلقِ ..

شابَة قَادهَا العِلم و المُطالعَة و القِراءة إلى الإنفِتَاحِ و تَقبُلِ الطَرفِ الثَانِي ، ثَمَانِية عَشَرة سَنة من الجُهدِ و المُعَانَاة ، حَتى وَصلت ياسَمِينة إلى أولِ سَنة في الجَامِعة ..

أحبّت أن تَخوضَ التَجرُبة الشيوعِية ..

و تَسيرَ في غِمَارِ الأحزابِ المُنفَتِحة على قُومِية مُعَينة ، حَتى صَادَفت في خَطواتِهَا الطَبِيب الشَاب جُوزِيف الذِي كَانَ أحدِ المُحَاضِرينَ في إحدى قاعَاتِ الحِزبِ الشُيوعِي..

إنَ العَلمنَة جَمعت بينهُما بِالعِلمِ ، الإنفِتَاحِ على العالمِ الإفتِراضِي ، الذِي جَعلَ من بَعضِ القَاراتِ تَسِير على عَجلةِ التَطورِ و التَحضُرِ ..

و عِند بِدَايةِ الثَورة السُورِية هَربَ الطَبِيب جُوزِيف إلى رِيفِ دِمشق ، إلى الغُوطَة الشَرقِية ، لم يَهرُب لأنهُ يَخاف من المَوت .. بَل من أجلِ أن يُعَالجَ الجَرحَى السُورِيين من لَعنَةِ الغَاراتِ الجَوِية التي كَانَ يُطلِقهَا عَلِيهم دكتَاتُورِ البِلادِ بشَارِ الأسَد ..

كُنتُ على وَشَكِ أن أصرُخَ قَبل عِشرينَ سَنة من وَقعِ الخِيانَاتِ التي حَدَثَت من قِبل الثُوارِ ، و إنشَرَاخَاتِهم القَومِية و العِرقِية و الطَائِفِية ..

فَلقد كَان الهُروب إلى الدُولِ المُجَاورِة من أصحابِ المَهَامِ الصَعبة كَالأطباءِ و الضُباطِ أقرب سَبيل لخِيانةِ النَاسِ العُزَل ..

لا يُمكن أن تَنتَصِر ثَورة صَوتُهَا خَارجَ حُدودَ الوَطن ، كُنتُ أبكِي على النَاس الذِينَ لا حَولَ لهُم و لا قُوة ، و من ضمنِ تِلكَ الأرواح التي تَعرضَت للذَبحِ و السَلخِ ، كَان من بَينِهم الطَبِيب جُوزِيف حَدّاد الذِي تَلقَى قَذِيفة قَطعت أطرافَهُ و نُقِل إلى تُركِيا و من تُركِيا إلى ألمَانِيا .. عَرفت يَاسَمِينة مَا جَرى مع حَبِيبهَا ، و جُنَّ جُنونَهَا .. لَحِقت بِهِ عَبر البَحر ..

و لَكن البَحر لا يُؤتَمن غَدرهُ .. فَغرِقت مع آلافٍ من الأسمَاءِ و العَائِلاتِ التي إلى الآن لا يُعرف مَصيرُهَا ..

إلى البَحرِ .. و مِلحِ الوَجع الذِي يَتَخبط على شَواطِئِهِ ..

أعِيدونِي إلى كُلِ مِلحٍ حَجريٍ دِمشَقي ..

أعِيدوني إلى الصَديقة ياسَمِينة حَنَا ..

أعِيدونِي إلى دِمشق .. أعِيدوني ..

كَم السَاعة يا دِيفيد ! ..

دِيفيد المُرافِقِ الدَائِم للسَيد طُونِي لَحَام ..

بَعدَ أن حَصد السَيد طُونِي لحَام جوائِز عَالمِية من رِيشَتِهِ ، لِكُونه أفضَل رَسَام عَالمِي ..

إلا أنَ السَيد طُونِي السُورِي الأصَل الذِي لجأ إلى النمَسا قَبل ثَلاثِينَ سَنة ، من عَام 2015 للمِيلاد ، و هَا هُوَ يَحط رحَالهِ في العَاصِمة النَمَساوِية فيينَا ، رباط وثيق يجمع بينه وبين النمسا، هُوَ الفَن ، إنهَا عَاصَمةٌ فنّهَا المُوسِيقى و رَجُلٌ رِيشَتهُ تسكن أورِدته

مُوسَيقى و رِيشة في قَلبِ مَدِينة ، و بَينهُما رجل أرهقه شَوقه لدِمشْق فِي مَنفاه ...

رَجُلٌ قَطعَ من الفَنِ ثَمَانِينَ دوَلة كُبرى .. لم يَترُك مَعرضًا عَالمِيًا إلا وحَطت لَوحَاتُهُ به ، بَعَد عَشرِ سَنَوات من اللجوءِ في النَمَسا حَازَ على الجِنسِية النمساوِية رُغمَ أنفهِ .. حَاوَل أن يَرفُضَهَا ، هُوَ الذِي لم يُبدل جِلدهُ يَومًا ، كَيفَ لهُ أن يَخلع الذَاكِرة في سُويعَاتٍ قَلائِل !؟

أعِيدونِي ..

عُنوان آخَرِ مَعرضٍ لهُ في بارِيس قَبل خَمسَةِ أشهُرٍ من أصَابَته بِمرضِ السَرطَان في الدَم ، كَان دَائِمًا يَقول :

كَيفَ لدِمشقي أن يُصابَ بِمَرضِ السرطَان ، و دَمهُ مُشَبّعٌ بمِياهِ بَردى !؟ ..

أقلُ لَوحَة بِيعت لَهُ في آخرِ معرضٍ لهُ في بِارِيس لا يقِل عن نِصفِ مِليون دولار أمرِيكِي ، و كَانت و لا زَالت تُبأُع لوَحَاتُهُ في المَزَادِ العَالمِي لِشُهرتِهِ و بَراعَتِه ..

هُوَ الذِي لمْ يَخرُج من ذَاكِرة دِمشقٍ يومًا ، لم تَلتَحفهُ عَاصِفة إعلامِية أو مُؤتَمر صَحفِي إلا و ذَكرَ دِمشق و تَفَاصِيلَ مَاضِيهَا ..

عُرِضَت عَليهِ المنَاصِب و الَجَاهَاتِ و قُدمت إلِيهِ الميدَالِياتِ و الدُروعِ و النَياشِين ، و فَاضَت حِساباته بِاليُوروهَات و الدُولارات ..

قَبل هَذهِ الإصَابة التي شَلت حَركة مَسيرته بِسَنة ، رُشِحَ من قِبلِ الحُكومة النمَساوِية الجَدِيدة أن يَكونَ وَزِيرًا للثَقافة ، و لَكن ذَاكِرتهُ منَعتهُ عن إنتعَالِ أي مَنصِبٍ ..

لقَد أسَّس في سُورِيا سَبعة مَعَاهِدٍ للَرسِم ، و أسَّسَ خَمسَة عَشَر مَيتَمًا في كُلِ أنحَاءِ العَالم ، و إثنَا عَشَر مَأوى عَجَزة في الوَطن العَربي ، و بَنى المُستَشفَيات و المُستُوصَفات و دور لرِعَاية الفُقَراء في الهِند و الصَين و إفرِيقيا ، و لم يَنسَ دُورَ الله التِي تُعلّم الحُب ..

الحُب فَقط هُو مَنهَجهُ ..

حُبه للمَاضِي ، لِدَمشق ، لأُمّهِ ، لأُختِهِ ، لأهَلِ الشَامِ ، لِشَوارِعِ الشَامِ ، لِقاسِيون لِكَنِيسَةِ أُمِ الزَيتون ، للمَسجدِ الأُمَوي ، للحَمِيدِية ، للبزورِية ، للميدانِ الدِمشقِي ، للمَقَابرِ التي طَوت الأحَبة ، للمَدارِسِ الدِمشقِية و الجَامِعَات ..

فَلقد أنفَق نصفَ ثَروتِهِ على المُنشَآت العَامة في دِمشق ، لَيسَ حُبًا للوَجَاهَة ، بَل عربُون مَحبّة للشَامِ و أهَلِهَا ..

لا زَالَ النَاسُ يَترقَبونَ حُضورَهُ اللافِتِ في التِلفاز ، يَتَتبعُونَ إرتَعَاشِ شَفتَيه ، يُكَحلون أعيُنهم بِرجلٍ يَمشِي على الحُبِ ، يستنشِقونَ مَاضِيهِ و لَكأنَ مَاضِي هَذا الرَجُل فَرِيد من نَوعِهِ ..

كُلمَا تَقدمَ بِهِ العُمر ، تَقدَم بِهِ الشَوقُ أكثَر ..

أعلى جَائِزة حَصَدهَا هِيَ :

جَائِزة نُوبل ، و من ثُمَّ جَائزة الملك فَيصَل العَالمِية ، و من ثُمَّ جَائِزة اليونسكو ..

و تَتَابَعت الجَوائز عَليهِ من كُلِ حَدبٍ و صَوب ، و حَصَل على سَبعَةٍ من شَهَادَاتِ الدكتُوراة التَشرِيفِية ، و لم يَتَوانى للحَظة واحِدة عن تَقدِيمِ المُسَاعَدة للقَاصِي و الدَانِي ..

كَانَ يُعَلق مُقتَطفة للشَاعِر الأسطورة الفِلسَطِيني على أحَدِ جُدرانِ بَيتِهِ :

على هَذهِ الأرض مَا يَستَحقُ الحَياة ..

فَكَانت حَياتهُ و لا زَالت من أجلِ خِرقة صَغيرة من هَذهِ الأرض تُدعَى دِمشق ، فَلقد صَفقَ لهُ العَالم بِحَرارة ، و

أُعطِي ما لم يُعطَ أحدًا قَبلهُ ، فَكَانَ مُفَرط في كُلِ مَا عِنده إلا شَيء وَاحد فَقط ..

حَقَيبتهُ التي خَرجَ بِهَا من دِمشق ..

حَقَيبتهُ التي طَوت أُمهُ كَلمَتهَا الأخَيرة بِهَا :

يا أُمِي ما عِندي بِهَذهِ الدُنِيا غَيرك ..

بُكرة بتُخلص الحَرب و بتِرجع ..

إنتهَت الحَرب ، و لم يَعُد أحَد ، لأنَ الحُروب الأهَلية لم تَنتَهِ ، فَاللصُوص في كُلِ مَكَان ..

و كُلَ أربَع أو خَمسِ سَنواتٍ لُصوصٍ يُسلمون البَلد لِلصوصٍ أشَدّ عَداوة و سَلبًا و سَرِقة من الذِينَ قَبلهُم ..

قَبل عَشَرةِ أعَوامٍ من مَرَضهِ .. و لأنهُ وَصَلَ إلى مَرتَبة عُليا بَسَبَبِ رِيشَتِهِ ..

و جَنى مَا جَنى من أموالٍ لا تُعدُ و لا تُحصَى ..

خَطَفَ الإرهَابِيون أختَهُ الوَحِيدة و أيضًا زَوجهَا و ابنَتهَا الوَحِيدة ، أنتَ في الوَطن الذِي يَنتَشِرُ فيهِ أعداء الحُبِ أكثَر من أعداءِ الشَرِ ..

في لَيلة عِيدِ المِيلاِد قَبل عَشرةِ أعَوام ..

إختَفت أخَتهُ و زوجها و ابنتَهَا أكثَر من شَهرِين مُتَتَابعَين ، و بَينَ لَيلة و ضُحَاهَا وَجدَ السَيد طُونِي رِسَالة بَرِيدِية في بَرِيدهِ الإلكترونِي الخَاص :

بِسمِ الله الرَحمن الرَحيم ..

نَحنُ جَمَاعَة التَحرِيرِ الإسلامِي ، نُعلِمكُم بِأنَ أُختكَ و زَوجهَا و ابن أُختكَ في أمَان ، و لكن لَن يَخرجوا من حَوزَتِنَا إلا بِفدية قَدرُهَا نِصف مِليارِ دُولار ، و تَنتَهي المُدة بَعد شَهرٍ وَاحد ..

و الله ولي التَوفِيق ..

جُنَ جُنون السَيد طُونِي عِندمَا سَمعَ بِخَبرِ الخَطفِ ، و حَاولَ مُراسَلتَهُم ، و لَكن لا أَحد يُجِيب ، أو تَأتي الإجَابة كَالتَالي :

الفِدِية أو الذَبح ..

جَمعَ السَيد طونِي مَا معهُ و استَدَانَ و حَاول التَفاوضَ معهُم ، و لكَن الإجابة ذَاتُهَا : الفِدية أو الذَبح ..

نَوعٌ من المُجرمينَ لا يُوجد في قَلبهِم شَفقة و لا رَحمة ، و ما ذنبُ الأبرِياء في مَعارِكِ الأقوِياء ! ..

مَا هُوَ الذنب !! ..

إسْألوا قَياصِرةِ الحُروبِ العَالمِية ..

إسألوا أمرِيكَا و فَرنسَا و رُوسِيا و حَتى العَرب ..

مَا هُوَ ذَنبُ الابرِياء في مَطَامِعكُم !؟ ..

لَن تَجدَ الإجابة إلا بَعد بُرهَة من الزَمن بِكَلمة وَاحِدة للدُموعِ التي بكت دَمًا عَلى فِراقِ الأحبّة ..

كَلمة وَاحدِة بِمُقابِلِ مَلايين الضَحَايا البَشَرِية ..

كَلمة : نَعْتذِر .. !!

يا الله مَا أسهَل هَذهِ الكَلمة ، نَعم إنَ المُجرمُينَ يسَتسْهلونَ كُلَ شَيءٍ ، و بِكُلِ شَيءٍ و حَتى بِالذِبحِ و القَتلِ و المَجَازِر و حَتى بِالكَلامِ ، و يا سَيدِي حَتى بالإعتِذار ..

مَا أسهَل الإعتِذار أمَامَ الجَمَاجم و الاجسادِ المتُهالكة تَحتَ التُراب ، فَلقد تَعددت الأسبَابُ و المَوتُ وَاحدٌ ، و تَعدد الإعتِذَارتِ و الكَلمةُ وَاحدة ..

في عَامِ 2015 للمِيلاد ..

قَدمَ وَزيرِ الخَارِيجِية الفَرنسِي لوران فَابيوس .. إعتِذارًا رَسمِيًا للجَزائِر وطنًا و حُكُومةً و شَعبًا ، على خَلفِيةِ التَصرُفِ التي قَامَ بِهِ أعوانِ الأمنِ بمطَارِ : أورلي على تَفتِيشِ وزَيرِ السَكَنِ و العِمران عَبدِ المَجيد تَيبون ..

أنَا أعرِف بِأنكُم شَعرتُم بِأنَ فَرنسَى سَوفَ يَعتذِر للجَزائِر!!..

لا تَضَحكوا و لا تبَكوا .. المُجرم لا يَعتَذِر ، رُبمَا يَموت على أن يَعتذِر ، و من سَيعتذِر لمن ! ..

الأموات لا تَعتذِر للاموات ..

هَل سَمعتُم بِالحَربِ العَالمِية الثَانِية ..

فَقط ثَمانِينَ مِليون نَسَمة بَينَ قَتِيل و مُشَرد و جَريح ..

من يَعتَذِرُ لهُم !؟

يبلغ العدد الإجمالي للخسَائر البشرية في هذه الحَرب حوالي 61,820,315 قتيلٍ بَين مدنيّ وعسكريّ من مُختَلف الدول المتحاربة فكانت خَسائر دُول الإتحاد السوفيتي الأكثر مِن بَين الدّول المُتحَاربة حَيث قدّرت

خسَائرها البشرية بحوالي 27,000,000 قتيلٍ بين مدنيّ وعسْكريّ، وتأتي في المرتبة الثانية بِعَدد القتلى دَولة الصّين حَيث خَسرت حَوالي 11,324,000 قتيلٍ بين مدنيّ وعسكريّ، أما ألمَانيا والتي كانت هِي بطلة الحَرْب في بداياتها الأولى فَقَد خسرت 7,060,000 قتيلٍ، تأتي مِن بعدها بولندا حَيث قدّر عَدد قتلاهَا بِحَوالي 6,850,000 قتيل، واليابان 2,000,000 قتيل، يوغسلافيا كانت خسَائرها البَشرِية بحُدود 1,706,000 قتيل. ووتوزع باقي الخسائر على مجموعة من 27 دولة شاركت بهذه الحرب، هذه هي الخسائر البشرية، أمّا الخسائر المَادية فقد كانت أكبر؛ حيث دمرت المصانع، وتوَقف الإنتاج، وكثرت البطالة ، و حدث كساد إقتصادي تأثرت به جميع دول أوروبا ..

هَكَذا تَدور الرحى بَين قَاتِلٍ و قتِيل ..

و اليوم ، لو تَعُود إلى المَاضِي لوَجدت أن جُلَ سُكَانِ الأرضِ أو كُلهُم مُجرمِين بمعنَى الكَلمة ..

و الكُلُ عَينهُ في رِزقِ الكُل ، و كَما كَانت تَقول أُمّي :
ولا يُشبعُ عَين ابنِ آدم إلا التُراب ..
و فِعلاً التُراب وَحدهُ قَادرٌ على تَفتِيتِ هَذهِ الأجسادِ التي كَانت في مَا مضَى مَصدرًا للشَرِ ، قِف على حَافَةِ الكُرة الأرضِية وقُل :
أيهَا المجرمُونَ .. أيهُا اللصُوصِ .. أيهُا القَتَلة ..
أينَ أنتُم .. أُخرجوا من تَحتِ شَرِكُم ..
وَاجِهوا هَذا العَالم ..
وَاجِهوا الأبرِياءِ و المَظلُومِينَ ..
وَاجهوا اليَتَامَى و المُعَاقِين ..
و الذِي خَلق هَذا الكون فلن تَسمَع لَهُم هَمسًا ..
شَهرٍ وَاحدٍ على إختِطَاف أختِ السَيد طُونِي ..
و بَعدَ أن سَلمهُم المَبلغ المُقدر نِصف مِليار دُولار ، و وَعدوهُ بِأن يُطلق سَراحَهم في مَدينةِ إستَنبولِ التُركِية في اليَومِ التالي من تَسليمِ المَبلغ ..
و لَكن مَن يَمنعِ المُجرمُونَ من الغَدرِ !؟ ..

لا أحد .. أبدًا ..

في إستنبول و بَعد أن إنقَطعَ التَواصُل مَع الخَاطِفِين و في اليَومِ الثَالث بِالضَبط .. وُجِدَت جَثامِينهُم على أحدِ الارصِفَة التُركِية في مَدينةِ إزمير مُلقاة أمَامَ أعينِ المُشَاة ، يا رَباه مَا الذِي يَحدُث في هَذا الكَون !؟ ..

رؤوسٍ مُقَطعة ، و أطرافٍ مَجزوزة ، و دِمَاؤهُم لا زَالت رَطِبة ، و عُيونٌ شَاخِصَة للهَوءِ البَارِدِ ..

إستنفَرَ جِهَازِ الأمنِ التُركِي ، و حُدِدَت هَوية الضَحَايا ، و وصَل الخَبر إلى السَيد طُونِي في النَمَسا ..

سَقطَ الرَجُل مُغمَى عَليهِ ..

و سَقطَت كُلُ الذَاكِرة ، و سَقطَ الحُبُ فَجأة كَمَا يتَسَاقَط أورَاق الشَجر في فَصلِ الخَرِيف ، السُؤال هَل سَتعُود تِلكَ الأوراقُ إلى الغُصونِ في بِدَاياتِ الرَبيع ! ..

لا أحد يَعرف أبدًا ..

لأنَّ الحَطَابِينَ في فَصلِ الشِتَاءِ كُثُر ، و كُثرٌ أعْيُنهم على أغصَان الشَجر ، طَمعًا بِحَطبهَا ، طَمعًا بِدفئهَا ، طمعًا بِجمَالهَا ..

ألكسَندرة ..

رُوسَيةِ الحُبِ و البَياض ، الأُنثَى التي وَقفَت بِجَانِبهِ دَائِمًا ، و لَكنَ فَضلهَا عَليهِ مَحصُور في قَلبِهِ ، و في ذَاتِ الوَقتِ لم يَنسَ جَميلهَا في حلوِ حَياتِهِ و مُرِهَا ..

كَان يُسأل دَائِمًا ..

ورَاءِ كُلِ رَجُل عَظيم إمرأة يا سَيد طُونِي ، مَن هِي تِلكَ المَرأة التي خَلفَكَ !؟ ..

كَانت ألكسَندرة دَائِمًا تَنتَظر الإجَابة التي تُحبُهَا ، و لَكن الدمشَقِي لا يَخونُ وَطنهُ لو وُضِعتْ لهُ إنَاث الدُنِيا بِرمتِهَا..

كَانَ الجَوابُ كَالآتِي ..

ـ هِيَ وَحدَهَا ، اسمُهَا المُؤنَث بِشَهوة ، مَاضِيهَا المُؤثَث بِالحُبِ ، قدمَهَا المُؤسَسِ بِالشُروقِ ، فَربُمَا إذا أجبتُ سَوفَ

تَضَحكوا عَليَّ .. و لكن مَهما ضَحكتُم فَلن أتَراجَع أن أنْطق من كَانت بِجَانِبي لأنهَا هي فَضِيحَتِي و سِرّي .. دِمشْق ..

هي وَحدهَا ، و لا أحدَ سِواهَا ..

ألكسَندرة ، دَائِمًا مَن كَانت تَقِفُ بَجَانِبِهِ ، فِي كُلِ مِحنَة ، في كُلِ حَنين ، في كُلِ شَوقٍ ، في كُلِ جُوعٍ ، في كُلِ بَردٍ ، في كُلِ أرِيكَة ..

و حَتى لا أكذِب .. في كُلِ سَرير ..

في إستَنبول ..

و على وقَع حَدثٍ هَزَّ الإعلام العَالمِي ، و جَرِيمة إستنكرتهَا كُل الدُولِ الكَاذِبة ، و القِوى المُنَافِقة ، و في الصَفحة الإولى في المَواقِعِ الإلكترونِية و الوَرقِية .. بعُنوانٍ يَقطرُ دَمًا :

شَقِيقَةِ الرَسَامِ النَمَساوي أنطوان اللحام ، السُوري الأصل ، يَجدُهَا الأمنِ التُركِي مَقطوعَة الرأسِ هي و زَوجهَا و ابنتهَا الوَحِيدة ..

خمسَة أيامٍ من التَجهِيزاتِ للقُداسِ المُرتَقَب في الكَنِيسَة الأرذثوكسِية في إستَبنول ، و الوَفودِ الرَسمِية تَتَوافَد إلى إستَنبول من كُلِ فَجٍ حَزين ..

كَأنَ اليَومَ يَومهُ ، كَأنَ الجنازة جنازَتهُ ، كَأنَ القداس لهُ ، كأنهُ هُوَ الجُموع و الحُشود ، كَأنَ التَوابِيت تَوابِيتهُ ، كَأن القَبرَ قَبرهُ ..

السَاسَة و المُحبِين و المُعجَبِين و أباطِرةِ الرفاهِية و فُقَراءِ الفنِ و عَارِضات للأزِياء و فَنَانَات و مُمَثِلات و كُتَاب و أدَباء في وَسطِ وَحلِ الحُزنِ يَتباكونَ أو بِالفعلِ يَبكون ..

لا دُموعَ فَوق دُموعَهُ ..

لأن هَذهِ الأُخت هي الوَرَقة الوَحِيدة التي يشكي لها وجع الشوق لدِمشق ..

مَاتَت مَن تُواسِينِي .. مَاتت من تُباكِينِي ..

و لكَن بَقيت لي دِمشق .. خَيرُ عَزاءٍ و خَيرُ مُعَزي و خَيرُ فَقِيدة ..

عشرون سَنة من الحُزنِ المُتراكِمِ في القَلبِ ..

حتى وَصَلَ بي الحَال إلى غُرفَةِ مُستشفى مُرفَهة أربَعة أمتارٍ بأربعِة أمتارٍ ..

كُل شَيءٍ أبَيض هُنَا ..

كُل شَيءٍ أمهق في هذهِ الزَوايا ..

مِلح الحُزنِ ، و طَحِين الأسَى ، و سَاعَة تُصدر تَكاتٍ أُحَادِية ، و ألكسَندرة التي تُغطِي شَيبهَا بالأصبِغة مَخافة

مُفارَقةِ الحَياة ، و دِيفيد المُرافِقِ الرَسمِي لِي الذِي بَلغ من العُمرِ عِتيًا ، مُمَرِضَة بِعُمرِ الحُبِ ، و ستَائِر مُرخَاة للوداعِ ، و وَجهِي ..

مَا أقَبحَهُ من وَجهٍ ..

كَيف لِي أن أُقَبلَ الموت من بَعدِ أن تَسَاقَط الشَعرُ من كُلِ جَسَدِي ؟ .. كيف لألكسَندرة أن تُجَالِسَنِي بَهَذا القُبح ...

كُنتُ كُلمَا أدخَلنِي ديفيد إلى بَيت الخَلاءِ ، كنت أُشَاهِد وَجهِي في المِرآة دائمًا ، لم أكُن أستَفرغ من الآثارِ الجَانِبية للجُرعَاتِ الكِميائِية ، لا أبدًا ! ..

بَل من القُبح الذِي وَصلتُ إليهِ ..

شَعرت بِي ألكسَندرة .. فقَالت لي :

ـ لا تَقلق ، عِندما تَتَعافَى سَوفَ تَعود كمَا كُنتَ ، و أجْمل من السَابِق ، أنَا مُتأكِدة من ذَلك .. و أنتَ في قلبي أجْمل من كُلِ الرِجَالِ ..

طَبعت قُبلة على خَدي يَومهَا ، و أيقنتُ بَأنَ الحُبَ لا يَموتُ أبدًا و لا يَشيخُ و لا تُصيبهُ صَائِبة ..

ـ كم السَاعة يا دِيفيد !؟ ..

ـ السَاعة العاشِرة صَباحًا بِتوقِيتِ دمشق يا سَيدي ..

ـ يا دِيفيد ألا تَرى بأنَ الوَقت قد حَانَ للعودة إلى دِمشق!؟..

ـ يا سَيدي أنتَ مُهَدد بِالقَتل .. ! .. و أيضاً لا يُمكن أن تَعودَ بهَذهِ الحَالة !! ..

ـ ها ها ها .. غَريب أمركَ يا دِيفيد ، مَاذا بَقي من الحَياة ، أنَا الآن أرى المَوت ، و هَا هُوَ يَقتَرب منِي شَيئًا فَشَيئًا .. صَدقني بأنَنَي أرى كُلَ شَيئٍ يضَحك من حَولِي ..

أبي ، و أُمّي ، و أُختي ، و زَوجهِا ، و إبنتهَا المسَكِينة ، و كُل من أحبَبتُ أن أعودَ إليهم ..

و حَتى أرى أُنثَى هِي سِرّي و فَضِيحتِي .. ! ..

ـ من هِيَ يَا سَيدي !؟ ..

شَهق السَيد طُونِي اللحَام و لفَظ آخر ما تَبقى من عُمرهِ قَائِلاً :

ـ إنهَا دِمشق ..

السَاعة الثَالثَة لَيلاً بِتوقِيتِ دمشق ..

اليَوم 10 أكتوبر ، 2030 للمِيلاد ..

مُستَشَار الدَولة النمسَاوِية يَودِعُ تَابوتَ الرَاحِلِ :

الفنان النمساوِي : أنطوان اللحام ..

السُوري الأصل ..

من بَعدِ صِراعٍ مع مَرضِ السَرطان دَام سَنة كَامِلة ، من بَعد حَفلِ تَأبينٍ حَضَرهُ كُل فَنَانِي العَالمِ المُبهَرجِ الكَاذِبِ ، الكُلُ حَضَر من سَياسيين و رِجَالِ دِين و رِجَالِ فَنٍ و حَتى فُقَراءِ القَومِ ..

كُل الصُحفِ نَعته ، كُل وسَائِل الإعلامِ بَكتهُ ، كُلِ المَواقعِ الإلكترونِية وَدّعَتهُ ..

الإعلامِي العَالمي برعَاية الحُزن الذِي حَلّ ضَيفًا على العَاصِمة النمساوِية فِيينَا ..

هُنَا مَطار فِيينَا .. حيثُ تُقلعُ الطَائِرة إلى :

الجَمهُورية العَربية السُورِية ..

طَائِرة تَحملُ وَجعَ رَجلٍ أفنَى حَياتهُ حُبًا لدِمشق ..

مَا أجملكِ هَذهِ الليلة يا دمشق ! ..

لقد عَادَ مَجنُونَكِ هَذهِ الليلة إليكِ بِتَابوتٍ غَربِي ، و أحلامٍ شَرقِية ، و أماني دِمشقِية ، و سَعادة لن يَعرفَهَا إلا من تَسَجى في هَذا التَابوت ..

السَاعَة السَادِسَة بِتوقِيت دِمَشق صَباحًا ..

تَصلُ الطَائِرة ..

طُوِقَ المَطَار بِرجَالِ الأمنِ ..

هُوَ ذاكَ الرجُل الذِي كَانَ يَمشِي مُتعَرِيًا من الأمَانِ ، هَا هُوَ اليوم و هُوَ مُسَجى في تَابوتِهِ مَحميٍ من الأيادِي و البُكاءِ و الدُموعِ و حَتى الأيادِي لم تَلمسهُ ..

هُزَ النَعشُ بَعد قُداسٍ في بابِ تُومَا ، و حَملَ الدِمشقيونَ رَجُلاً كَانَ يَهوى أُنثَى يُقَالُ لهَا :

دمشق ..

و تَنَاثَرَ الياسَمِينُ على التَابوتِ مُودِعًا إحدى قِصَصِ الهوى ، و غَنّت دمشق له ، و للحُبِّ ، و للسَلامِ و لكُلِ لَوحة رَسمَهَا ، و لِكُلِ جَائِعٍ أطعمهُ ، و لِكُلِ عَارٍ كَسَاهُ ، و لِكُلِ مِسكِينٍ آواهُ ..

رَسول الحُبِ هَذهِ السَاعة ، يُدفَنُ في أرضِ الحُبِ ..

نَبي الفَنِ في هَذهِ اللحَظة يُطوى كمَا يُطوى السَلامُ ..

قِديسَ الرِيشَة هَذهِ الثَانِية ، يُسوى بهِ الأرض ..

كُتبَ على شَاهِدةِ قَبرهِ :

طُوبى لمن إختارهُ الرَب ..

يَرقُدُ في هَذهِ الجَنة ..

رَجُلٌ مَاتَ في سَبيلِ دِمشق عِشقًا ..

إنهُ الفَنان العَظِيم ، و أحد عَمالقةِ الهَوى ..

السَيد :

أنطوان اللحام ..

أتمَمتُ رِواية :

أَعيدُوني

في بَلَدِ الحُرِية و الدِيمُقرَاطِية : النَمسا ، في عَاصِمَةِ البِيانو و الكَمنجَة : فيينا ،

في مَقهى J.HORNIG ، في الحي السَابع ..

السَاعة : 00 : 01 ، ظُهرًا بِتوقِيتِ العَودة إلى دمشق ..

مِن تَارِيخ : 29 / أكتُوبر / 2017.